أحمد شريف الرفاعي



الدار السعودية للنشر والتوزيع

السفاح والقمر

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

المؤلف في سطور

□من مواليد ٢٠ يوليو ١٩٣١ بمدينة عدن وخرّيج مدارسها

□عمل مدرّسا في المدارس الأهلية وكان يكتب في الصّحف باسماء مستعارة

□التحق بالسّلك الحكومي فتدرّج في العديد من الوظائف الحكومية حتىّ استقرّ في وظيفة مدرّس في المعارف غير انّه ظلّ يواصل الكتابة في الصّحف باسماء مستعاره.

□في عام ١٩٥٤ فصله المستر (هارتلي) مدير المعارف آنذاك من وظيفته بسبب مقال كتبه عن سياسة التعليم الاستعمارية ورغم انّه كتب المقال باسم مستعار الاّ ان « المخابرات » استطاعت ان تحصل آنذاك على المقال المكتوب بخطّ يده.

□عمل نهائيا في الحقل الصّحفي فكتب في العديد من الصّحف الاسبوعية واليومية كان ابرزها عمله في صحيفة « الايام » التي كانت كتاباته فيها تحوّلا خطيرا في مجرى الحياة الصّحفية . . محلّيا.

□تعدّ كتاباته الصحفية والادبية والفنّية مواكب زاخرة بالحيوية والنضج، ومقياسا لأرقى الكتابات نوعا واتجاها وأسلوبا وموضوعا في العالم العربي.

□ جاوز أفقه المحليّ فتلقّفت العديد من الصّحف العربية كتاباته بالترحاب والحفاوة وتذيع الاذاعة البريطانية مايكتبه اليها على مستوى كتّاب العالم العربي المرموقين.

□عمل في الحقل الاذاعي والتلفزيوني في عدن فكتب البرامج والمسلسلات والتمثيليات والمسرحيّات الطّويلة المتلفزة وأغنى مكتبة الاطفال الاذاعية والتلفزيونية بالبرامج والتمثيليات والاسكتشات والاغاني.

□أحدث ثورة في مجال كتابة كلمات الأغنية فأعطاها الموضوع والكلمة الحلوة والصّور الشّعرية وطرق بها آفاقا جديدة لم تطرق من قبل فجاوز عدد الاغاني التي كتبها لمختلف المطربين والملحنين المائتي اغنية وانشودة واسكتش وصورة غنائية.

□له العديد من الكتب والرّوايات والقصص القصيرة التي لم يقّدر لها بعد ان تجمع في كتب بسبب من ضآلة امكانيات الطّبع في بلاده

المجموعة الأولى



الشيء الصغير

بدأت المسألة بداية تافهة . . . فقد لمح شيئا صغيرا على الارض وهو يهمّ بمغادرة غرفته الى الشّركة التي يعمل بها . . وكان مجرّد عقب سيجارة التقطه بلا وعي تقريبا ، يدفعه احساس واحد هو أنّ الغرفة يجب ان تظلّ نظيفة جدّا، وان يكون بلاطها الشّمعي الذي يفرش أرضها، كالمرآة لا يشوّهه حتىّ عقب السّيجارة الملقى في اهمال.

وبدلا من ان يلقي بالعقب من النّافذة راح يتأمله . . انّه عقب من سيجارة غير الماركة التي اعتاد ان يدخّنها.

وقال في نفسه « قد تكون احدى جارات أم السّعد ـ زوجته ـ تدخّن » ولم يخطر بباله أن المسألة يمكن ان تتطوّر الى هذا الحدّ.

كان بطبيعته موسوسا، يلعب الشّك والحذر دورا كبيرا في تصرّفاته، غير انّ الشّك لم يبلغ به حدّا يحمله على الظّن. . . أسوأ الظّن بـ أم السّعد . . . أم السّعد شريكة حياته وعمره، والمرأة التي قاسمته الحياة بحلوها ومرّها وكانت وراءه دائما في كلّ مراحل عمره . . احتملت نزواته، وصبرت على عيوبه وذاقت على يديه أطاييب الحياة وشاركته شظفها وآلامها . . ذرفت الدّموع من

أجله، وامتلأ قلبها بالفرح لانتصاره وكأنهما قلب واحد ونفس واحدة لم تستطيع ان تسكن في جسد واحد فاستقرّت في شخصين اثنين. . . . هو، و«أم السّعد».

ولكن . . مابالها ارتجّ عليها، وتشتّت منطقها عندما سألها « هل دخلت عليك جارة لك تدخّن؟ ».

نظرت اليه في ذهول، وكأن السؤال باغتها، وقبل ان تجيبه تلجلج لسانها، وتمزّقت كلماتها . . وبصعوبة شديدة استطاعت ان تجمع شتات منطقها وتواصل الكلمات المتقطعة في جملة مفيدة واحدة حين قالت له

- نعم . . انها جارتنا سلمى.

وحتىّ هذا الموقف لم يدفعه ابدا الى الذّهاب بظنّه مذهبا آخر، غير ان المصادفة والمصادفة وحدها هي التي جعلته يعرف انّ جارتها «سلمى» لا تدخّن، فقد كان عائدا مع زوجها « سالم » الذي يعمل معه في نفس الشّركة الى البيت ظهرا ذات يوم، وصادفا في طريقهما جمهرة من النّاس احتشدت الى جوار مدخل السّوق، بينهم نسوة متلفّعات بالحجاب، فلمّا سألا اوّل عابر سبيل عن الخبر قال لهما انّ هذا الحشد من النّاس ينتظر « القات » الذي تأخر بسبب السّيول التي اجتاحت شمال اليمن، وقلّب صديقه « سالم » شفتيه في ازدراء لاولاء النّسوة اللائي يمضغن القات وصادق هو على كلام « سالم »، ولكنّ «سالم» قال بغتة:

- حمدا لله انّ زوجتي لا تمضغ القات ولا تدخّن السجاير.

ـ ها؟؟ ماذا تقول؟؟ تقول انّ زوجتك لا تدخّن . . ؟؟

وردّ « سالم » في حماس وقد ازدهاه ان يأخذ صديقه قوله مأخذ الاهتمام :

ـ سلمى . . عمرها ما دخّنت سيجارة واحده .

ووجد « مصطفى » نفسه يبحلق لأول مرّة في السيجارة التي ينفث صديقه « سالم » دخانها . . . انهّا من ماركة اخرى لا تنتمي الى العقب الذي التقطه على الارض وزعمت زوجته « ام السّعد » انّ جارتها «سلمى» هي التي ألقت به .

ومن جديد راح يستعيد صورتها في ذهنه عندما القى عليها السّؤال ، كيف تقلّصت ملامحها وتمزّقت عباراتها شرّ ممزّق . . .

ترى . . هل يمكن ان . . . . . ؟؟؟ ولكنّه سرعان ما طرد هذا الخاطر الآثم من ذهنه .

وفتحت الخادمة الصّغيرة له الباب فدخل من توّه الى غرفته ، فاذا بـ« ام السّعد » تثرثر وراءه كالعادة في اشياء يومية وتزيّن له ان يأكل قبل ان ينام لبضع ساعات بعد عودته من العمل ولكنّه صرفها مدّعيا التعب ، وسألها عن اخيه الذي يشاركه المسكن هل عاد من نوبته الليلية فأجابت بالايجاب واشارت الى الصّالة حيث ينام .

ووضع رأسه على الوسادة . . . واغمض عينيه . . أطبقهما في اصرار ولكّن اعماقه مازالت تهدر هدير الشّك ، رغم تحايله على النّوم بشتىّ السّبل . . وحاول ان يسكت صوت اعماقه ولكنّه لم يستطع فقد كان صوت هذه الاعماق كهدير الامواج .

ووجد نفسه من جديد يتأمل حياتها . . . حياة مليئة بالصّور والانفعالات تفتّحت امام مخيّلته شريطاً من الصّور لا يستطيع ان يشاهده الاّ وهو مغمض العينين .

انّه يدرك تماما حقيقة ماتعانيه من آلام . . . يدرك سر مأساتها الكبرى . . . فهي لم ترزق بأطفال . . . يملأون حياتها بهجة وحبورا . . .

شدّ ما تتوق الى ممارسة امومتها التي لم تمنحها لها الطّبيعية الاّ مرّتين . . اثنتين ثمّ اذا بيد المنون تخطف بالشّمال ما اعطته الطبيعة باليمين .

وانثال « شريط الذكريات » على مخيّلته . . .

انّ « أم السّعد » جميلة . . وشدّ ما اورثه جمالها المتاعب ، وهي . . هي ، لم تتغيرّ . . . ولم يضع الزّمان على وجهها بصماته الرّهيبة كأنما هو يعوّضها بالشباب الدائم ما حرمها من نصيبها كأم . . وهي ذات حيوية متدفقة . . لا تعرف الكلل او الملال .

ترى . . هل بدأت تملّه؟ هل بدأت تستشعر ان فرصة الحياة معه تذهب؟ .

لقد لاحظ في الايام الاخيرة شدّة وجومها وصمتها . . اتراها قد ملّت حياة الوحدة؟؟ هل يمكن ان يكون في حياتها «شيء» جديد؟؟

اسئلة اقتحمت عليه ظنونه كرياح ساخنة . . . وعلى الاخصّ السّؤال الاخير . . .

انّ بعض النساء ينقلبن مراهقات حين يبلغن سن الاربعين ويصيبهن تشبّث شديد بالحياة كلّما شعرن انهّن يوشكن من الدنو من السن التي يسمّونها سنّ الوقار.

ترى .. هل تصبح « ام السّعد » مراهقة في الاربعين؟

انّ « حيويّتها » تسبّب له ضيقا في بعض الاحيان يكتمه في كبرياء ...

فهي دائما هي ، منذ ان تزوّجا ... ذات طاقة لا تنفذ، اعطتها الطّبيعة تعويضا عن الشكل ... فهي تجد في تلك الحيوية متنفساً لها وهو، هو الطّرف الذي لا بدّ للحيوية الخارقة التي تتمتع بها « ام السّعد »ان تستنفذه.

اما هي .. فتعسة، حرمانها من الاطفال اصبح هاجس حياتها الاوحد ، واما هو فحرمانه من الأبوة لم يبلغ حدّ التعاسة التي تشعر بها زوجه.

ويزيد من تعاستها ان الطبيعة أبت الّا ان تتكّل بها، ان تسخر منها ... سخرية مريرة حين توهمّت مرتين انهّا ... واحم، ولم يكن ذلك « الوحم » الّا مجرّد ... وهم .

والحق أنهما عرضا نفسيهما على اكثر من طبيب وطبيبة فلم ير فيه أو فيها خللا، وأكد لهما انّ المسألة رهينة صدفة قد تحمل فيها الزّوجة المتعطشة الى الامومة والام الثكلى.

* * *

وأفاق من غفوة خواطره على يدها توقظه، فصحا ليوهمها بأنه -

وهو يتمطّى ـ قد نام نوما عميقا . . . فلما وضعت له الطّعام ، على «التختة» تناوله في رتابة، وبلا شهيّة تقربها.

وقالت له وهي تصبّ الماء على يديه بعد فراغه من تناول طعامه بأنها ستذهب لزيارة امّها التي بلغها انهّا متعبة . . . فهزّ رأسه علامة الموافقة وقال لها انهّا اذا ماعادت فستجد النسخة الثانية من المفتاح عند البقّال المجاور فقد فقدا النسخة الاولى . . . لا يدري هل اضاعتها هي ام هو ذات يوم.

وما ان ذهبت وتركته وحده في المنزل حتىّ تهيّأ للخروج . . . وراح يفتش عن حذائه تحت السّرير . . . فهاله ان يكتشف ان تحت السّرير خمسة اعقاب من السّجاير من نفس ماركة العقاب الذي وجده لأول مرّة.

خمسة اعقاب .. هكذا .. مرّة واحدة . . .

وجمعها بيد مضطربة كأنما عثر على دليل لا يستبان به . . . من اداة الخيانة وراح يتفحّصها في ذهول وغيظ . . . اذن . . ففي المسألة . . غريم . . .

ولا بدّ انها لم تكتف باستقبال عشيقها في البيت عند غيابه هو في العمل فضربت له موعدا في الخارج أو انها خشيت ان تفتضح.

بل انّ المسألة اكثر وضوحا .. فان غياب شقيقه اثناء الليل واقتعاده في البيت نهارا، حرمها من لقاء غريمه المجهول. . ولم يسترسل في خواطره بل جمع الاعقاب ووضعها في الدّرج واغلق عليه بالمفتاح وخرج.

* * *

وجد نفسه يقرع باب بيت حماته في عصبية ، ولم ينتبه الى انه في حالة هياج الاّ قبل ثوان من اجابة اهل المنزل على القرع، عندها فقط تذكّر انّه يجب ان يكون (طبيعيّا) حتى تنجح خطته من اكتشاف مراحل الجريمة .

واستقبلته حماته في ترحاب وبشاشة ، وسألته عن حال زوجته « اذن فأم السّعدلم تذهب الى امّها كما قالت» هكذا تساءل في سرّه ولكنّه طمأنها الى انها بخير.

واستغرقهما الحديث حتىّ انّه لم يسأل عن الغرض الذي من اجله جاء حين همّ بتوديعها لولا انّه تدارك المسألة وقال لها بأنه كان يعود صديقا مريضا قريبا من منزلها فحدثته نفسه ان يعرّج على بيت حماته .

وخرج . . .

بقي شيء واحد . . هو ان يضبط المجرمة « متلبسة » بالجريمة .

في البيت . . وجدها قابعة تخيط بعض الجوارب ، فحيّاها - كالمعتاد - وسألها عن صحّة أمها وعندها قالت انهّا ينبغي ان تزورها غدا ايضا لأنها لا زالت مريضة . . عندما قالت له ذلك احسّ بعاصفة هوجاء، تجتاح قلبه . . واشاح بوجهه عنها حتىّ لا ترى خلجات نفسه تطفو على ملامح وجهه المربّدة . . . وهو يسمع منها انّ امّها - التي تركها قبل ساعة واحدة فقط - في اتمّ صحّة - مريضة ينبغي ان تراها غدا ايضا .

وفي اليوم التالي كان قد سبقها الى الخروج وقد إنتوى امرا . . .

وقالت له وهي تودّعه على الباب بأنها سوف تزور امّها .

ورابض بعيدا عن المنطقة يراقب بيته، وراقبها وهي تخرج وتضع المفتاح عند البقال المجاور وعندما اطمأن الى انهّا ذهبت سار ورائها خطوة . . خطوة . . يراقبها وهي لا تراه.

« يا خائنة . . هذه مرحلة هامة من مراحل الجريمة لعلّها الختامية . . . قدماك يجرّانك الى حتفك الاخير، ستكون فضيحتك ذات تاريخ، سيعرف النّاس ايّ صنف من النساء انت » .

وانقطع نهر خواطره من الجريان حين لمحها تتوقّف عند. . عند ماذا؟ لم يفهم بادىء الامر شيئا وظلّ مرابضا في مكانه البعيد زهاء ساعة كاملة حتىّ لمحها تتلفّح بحجابها وتخرج .

واقترب من لوحة كانت على الباب الذي خرجت منه فقرأ ما يلي :

(الدّكتوره ماجي / طبيبة نساء)

ما ان صعدت سلّم البيت حتى كان هو في اثرها. . . . وهو يستشعر بخيبة امل. . . وما ان صافح وجهها حتى القت برأسها على صدره ثم رفعته وقد اضاءت محيّاه ابتسامة عريضة. . كانت تملأ وجهها كلّه حتىّ اوشك وجهها كلّه أن يتحوّل الى شفتين ضاحكتين، فسألها في وجوم: ما بك؟

قالت له : لقد تأكدت اليوم بأنني . . بأنني

وانهمرت من عينيها دمعتان قبل ان تتم عبارتها وتقول له . . . حامل . . .

امسك بها في اهتمام لا حدّ له وهو يقول لها « ولكن لم يبد عليك هذه المرّة انك توحمّت » . . .

قالت له « بلى . . لقد توحمّت هذه المرّة على . . . السّجاير وكنت احسب انّ الامر خدعة ككلّ مرّة ولكنّ الدكتورة « ماجي » التي كنت اذهب اليها موهمة ايّاك بأنني ازور امّي ، أكدت لي بأن حملي هذه المرّة حقيقة لا خيال ، ووحما وليس وهما » .

طوفان الدم

كان يبدو شيئا مخيفا ذلك الذي يوشك ان يحدث.

ان المقاومة المسلّحة للوجود البريطاني في «عدن» و«الجنوب العربي» قاطبة قد تحوّلت الى توتر بين حزبي «الاستقلال الوطني» و«التحرر» تمثَّل في العديد من الشّعارات والشّارات المرفوعة فوق ساريات المنازل والمكتوبة بالحبر والفحم على الجدران، وذلك حين تأكد الحزبان ان بريطانيا عزمة جدّياً على التخلّي عن المنطقة، وبعد ان اصبحت الحكومة الشّكلية الفيدرالية للجنوب العربي قاب قوسين او ادنى من الانهيار التام، ومن اجل ذلك تحوّل التنافس على قتل البريطانيين الى تنافس من اجل وراثة الحكم البريطاني في المنطقة، فتحوّلت الشّارات والشّعارات الى ما يشه «المهاترات» بين الفريقين المتنافسين على السّلطة، حزب«الاستقلال الوطني»وحزب «التحرّر».

ووصلت الأمور الى اوجها حين شرع كلّ فريق يختطف زعماء الفريق الثّاني وينكلّ بهم، وحين تحوّلت المنافسات الى تناقضات محيّرة للناس، فحين يعلن حزب «الاستقلال الوطني» ان على الشّعب ان يضرب، كان الحزب الآخر يطلب الى الشّعب ان لا يضرب، فاذا

فتح ارباب الحوانيت والمتاجر دكاكينهم جاءهم الفريق المنادى بالاضراب مهدّدا متوّعدا، فاذا اقفلوها جاءهم اعضاء الفريق الآخر بنفس التهديد والوعيد. . .

وانقسم الرأي العام الى شقّين، وبلغت المشاحنات اوجها لا بين الفريقين المتنافسين على السّلطة فحسب، بل وبين المتشيّعين لهذا الفريق او ذاك، حتىّ غزت الخلافات كلّ بيت، وقسّمت افراد العائلة الواحدة واوجدت التشاحن والبغضاء والكراهية حتّى بين الأخ وأخيه والابن وابيه. . . . فكنت لا ترى سوى توتر وقلق في العيون وعلى الشّفاه، توتر محموم يسود الجوّ الخانق المكفهر بالحرّ الذي يشوي الوجوه. . . وتوتر في النفوس التي ران عليها القلق. . . . وتوتر في الاعصاب من جرّاء انتشار الجنود البريطانيين في الشّوارع واجبارهم الناس على الوقوف صفوفاً صفوفا لاجراء عمليات تفتيش مصحوبة بالاذلال والعنف ضد المدنيين من السّكان كلّما لعلع رصاص او حدث انفجار كان في بادىء الأمر يستهدف البريطانيين ثم اصبح يستهدف الأشخاص من كلا الفريقين.

وبدا ان الأمور تتحوّل من سيء الى أسوأ، فالحركة التجارية والمعيشية قد توّقفت تماما، واصبح اولئك الذين يضطرون الى مغادرة بيوتهم لا يعلمون هل يعودون احياء ام يعودون باعضاء ناقصة مبتورة من جرّاء الانفجارات الطائشة للقنابل والتي اصبحت تستهدف الابرياء اكثر من استهدافها للبريطانيين انفسهم.

وفشلت كلّ الجهود التي بذلت للتوفيق بين الفريقين المتنافسين على

السّلطة، وافاقت عدن ذات صباح على حرب اهلية حقيقية اندلعت في مدينتي «المنصورة» و«الشّيخ عثمان» المجاورتين لحيّ «كريتر» . . . . حرب حقيقية تعدّت نطاق رفع الشّعارات المضادة الى رفع الرّشاشات وتوجيهها الى الصّدور والقاء القنابل والقتل في الاقتتال في الشّوارع.

وافلت زمام الامن تماما من يد البريطانيين الذي كان معظمهم ينظر بارتياح الى تحوّل القتال ضدهم صوب الوطنيين بعضهم بعضا . . .

وبدا شيئا مثيرا للرّعب ذلك الذي يحدث . . .

ان المدينتين المتجاورتين تتحوّلان الى انقاض . . . فلا تسمع الاّ دوي انفجار مروّع يتبعه انهيار منزل بأكمله وسقوط قتلى هنا وهناك في الشّوارع ولعلعات رصاص ، واقدام تهرول . . . في ذعر محموم، وبدت بعض المنازل التي نسفت واجهاتها كما لو كانت منظرا داخليا في مسرح مقام على الاطلال في مدينة اثرية، ولم يكن غريبا ان يرى المرء افراد الاسرة في ذلك المنزل من الرّجال والنساء قتلى، فقد اثار مشهد من هذه المشاهد الرّعب والذعر والتقزّز في نفسي . . .

انّه المنزل المجاور لبيت شقيق زوجتي ـ الذي صادف ان كنت موجودا فيه يوم وقعت احداث المنصورة ـ فقد كان بلا واجهة، وكانت فيه امرأة قتيلة تسبح في دمها بعد حدوث الانفجار ، وكان هناك طفلها الذي اخطأته القذيفة في حين اصابت من امّه مقتلا ، ولم يكن الصّغير يبكي ، بل على النقيض، فقد كان على مايبدو يرضع

ثدي امّه التي فصلت القذيفة رجليها عن جسدها تماما ، وفجأة افلت ثدي امّه القتيلة من فمه وراح يحبو نحو جزئها المخضّب بالدّم ويرفع يديه عالياً ثم يخبط بهما بركة الدّم . . .

وقطع راديو « المدينة » برامجه العادية وراح يناشد المقتتلين ان يرعووا عن غيهم ويحتكموا الى ضمائرهم ويتركوا الاقتتال ويذيع بين الفينة والفينة موعظة حسنة يتبعها بنشيد وطني غالبا ما يكون مرتبكا لا يتلاءم مع الظّروف ، فقد حدث انّ المذيع الذي كان يقدّم من ميكرفون الاذاعة تلك النداآت التي تناشد المتقاتلين وقف الاقتتال وحقن الدّماء، كان يقدّم بين هذه الفقرات نشيدا يقول :

بلادي لان سال فيك الدّم
ففي ذلك الشّرف الأعظم

في كلّ مكان ، كانت الدماء تسيل ، . دم هنا . . ودم هناك . . . وبين الغبار والركام الذي كان يتناثر من الانقاض كانت ايد وجماجم بشرية تتساقط هي الاخرى.

كنت اتساءل في نفسي : لماذا يقتتل هؤلاء الناس؟ ولكن السّؤال كان يضيع هو الآخر ويمزّقه انطلاق الرّصاص الذي كان يسمع في الخارج ملعلعا ، فأحاول انا ومن كانوا معي في منزل صهري ان نحشر اجسادنا تحت الاسرة وفي الزّوايا الداخلية للمنزل تاركين الغرف الامامية لأي قذيفة قد تدخل مجنونة مدعوة لتنسف واجهة المنزل وكنا جميعا نفوسنا في حناجرنا تسيل بكاء ونحيبا وخوفا وهلعا وذعرا .

ولم يسكت صوت الرّعب الاّ بعد ثلاثة ايام حين استطاعت القوّات البريطانية بشقّ النفس ان تفرض السّلام وتطلب الى الجيش ان يتدخّل لصالح احد الفريقين المتقاتلين على السّلطة ، وهو حزب «الاستقلال الوطني» عندئذ . . . عاد الهدوء يستتّب من جديد وانهى الاقتتال الاهلي.

❊ ❊ ❊

وتنفسّ الناس الصّعداء ، لا حبّاً في حزب « الاستقلال الوطني » الذي انتصر له البريطانيون ولكن لأن ما يهمّهم هو وضع حدّ للاقتتال بأي سبيل وبأي شكل من الاشكال.

كانت بقع الدّم منتشرة في كلّ مكان، وكان المفقودون كثيرون، فقد خلّف الاقتتال الاهلي في كلّ بيت مناحة وبدت عائلات كثيرة كما لوانها قد تحوّلت هي الاخرى الى انقاض، فالحزن يرين على الوجوه والدموع تملأ العيون التي تنزف بها، فقد توّقف نزيف الدّم ولكن العيون النازفة بالدموع لم تكفّ مآقيها عن النزيف. وخرجت اتفقد بعض الاصدقاء . . . ومن بينهم صديقي « حامد » . . .

لم يكن « حامد » من اولئك الذين يتشيعون للاحزاب السّياسية، ولم يكن يبدو متحمّسا لفكرة الاستقلال الوطني، فقد كان يصبّ كلّ اهتمامه نحو اولاده وبيته وزوجته **البدينة** التي يحبّها ويحنو عليها لأنها - كما قال - مقطوعة من شجرة، اهلها في «اندونيسيا» وهي في عدن . . . شبه يتيمة عن الاهل لا تكاد تعرف احدا.

لقد كان « حامد » نموذجا للمواطن المرتاح نفسيا في كلّ الهموم

السّياسية، ورغم انّه كان يعمل في وزارة الارشاد الآ ان عمله كان مقتصرا على النسخ على الآلة الكاتبة في قسم الحسابات، يضع اللوائح الشّهرية للمرتبات ويحسب المبالغ المستحقّة للكتاب والمذيعين والمساهمين في برامج الاذاعة من ادارة المالية . . . ولم يكن يعرف عنه انّه يميل الى هذا الفريق او ذلك، او حتىّ يناقش امرا ولو هيّنا من امور بلاده التي كانت تزحم بالاحداث المهوّلة والمرعبه.

وعندما اتجّهت نحو منزله وجدت الباب مغلقا بالقفل والمفتاح، فهممت بالقفول راجعاً لولا ان جاره الثرثار استوقفني واخبرني بأن «حامد» قد اخذ زوجه الى «المستشفى» لأن قدمها قد زلّت وهي حامل في الشّهر الأخير ويبدو ان دماء كثيرة قد نزفت منها.

وبينما هو يقول لي ذلك اذا بي أرى سيّارة آتية لمحت فيها «حامد» واولاده الاربعة، فتوقّفت، وفي الحال اقتربت السّيارة من البيت ونزل «حامد» . . .

حييته فوجدت وجهه ممتقعا، وسحنته مربّدة . . . وهوّنت عليه الامر . . . ولكن يبدو ان الامر لم يكن هيناً كما تصوّرت . . .

كان قد عاد من توه من المستشفى . . مستشفى الولادة، فان الحادث لازال طريّا . . .

وقال لي أنه بحاجة شديدة الى وجودي بجواره، فاستأذنته ريثما اذهب الى منزلي واغيرّ ملابسي ثم اعود اليه.

وهذا ما صنعته بالفعل، غير انّي لدى عودتي لم اجد «حامد»

ووجدت ثلاثة من اولاده مع الخادم الصّغير في المنزل، وعرفت عندها ان « حامد » اخذ اصغر الاولاد الى المستشفى فقد كان طفلا عليلا يحبو وأنه ترك بقية اولاده في رعاية الخادم الصّغير.

ولم يكن ذلك هو المهمّ ، فان سيارة مستشفى الولادة جاءت بعد ذهاب «حامد» لتضع في اذني الخادم الصّغير.. الغبي .. نبأ مفاده ان ادارة مستشفى الولادة تطلبه في الحال.

واكتفى الخادم الصّغير . . الغبي . . . بان هزّ رأسه دون ان يسأل سائق السّيارة الذي جاء بالنّبأ ما الذي حدث لزوجة « حامد » ، فلما جاء « حامد » وسمع بذلك اوشك على الانهيار ، فقد كانت حال زوجه خطرة وليس من المستبعد ان يكون قد حدث لها شيء . . .

ولم يكن الوقت يسمح بالمزيد من الانتظار، فقد خرج « حامد »، وخرجت معه مهرولا واستوقفنا اوّل سيارة اجرة عابرة في طريقنا الى المستشفى . . تاركين الصّغار في رعاية الخادم الصّغير . . . الغبيّ .

لو اننا سرنا على الاقدام لكنّا قد بلغنا المستشفى ، ولكن السّيارة كانت تسير وسط شوارع مزدحمة بالجماهير الغفيرة التي تهتف لحزب «الاستقلال الوطني» . . . الذي انتصر في الحرب الاهلية ، وكانت اللافتات تملأ الشّوارع والمتظاهرون يعطلون المرور وهم يسيرون هاتفين في تشنّج . . . متشيّعين للحزب المنتصر، فسارت السّيارة ببطء وسط الزّحام واعصابنا تتّقد.

وبشق النفس وصلنا الى دار الولادة . . .

كان « حامد » يبدو منهارا تماما، فقد كان يسألني في الطّريق بلهفة:

ـ لن يطلبوا الى الخادم ان اوافيهم الاّ اذا كانت قد ماتت . . اتراها ماتت؟ ام انها في حالة خطرة وعلى وشك ان تموت . . ؟ ماتت؟ لم تمت . . ماتت؟ لم تمت . . .

حالة اشبه ماتكون بالجنون والهذيان . . . انتابته وسط همهمات من اللعن الخفي للمتظاهرين الذين يعرقلون المرور ويعرقلون في نفسِ الوقت سرعة الوصول الى « اليقين ».

وعندما كانت واجهة دار « الولادة » امامنا، توقّفت السّيارة، ولكن « حامد » لم يستطع النزول ، وقال لي وصوته يتمزّق والعبرات تكاد تخنقه:

اسندني . . ارجوك، انّني اوشك ان اتحوّل الى شظايا متناثرة، ان اعصابي على وشك الانفجار ففي داخلي قنبلة اسمع ازيزها في اذني مدويا موشكا على الانفجار حالما ستقول لي الممرضة ان زوجتي . . توفّت .

كدت ان انفجر ضاحكا لولم يسعفني منظره الذي يثير الهلع ، فقد كان وجهه اصفر ذابلا ،وعيناه زائغتان ومنظره يعصر القلوب اشفاقا عليه . . .

لقد لاح تشبيهه لوضعه المتفجّر كما لو كان صدى ورواسب للحالة التي كان عليها بلدنا . . انفَجار . . . شظايا . . . قنبلة . . . واسندته . . .

ودخلنا معا من البوابة الكبيرة الى ادارة المستشفى . . .

* * * *

ما ان رأت مديرة المستشفى « حامد » حتّى طلبت اليه ان يسرع وبأقصى جهد الى جلب متبرّعين بدمائهم لزوجته، فالزّوجة التي اجهضت حين زلّت قدمها نزفت الكثير من الدم بحيث ان اسعافها بدم بات مسألة حياة او موت.

وعضّت المديرة شفتيها وهي تقول لنا:

ـ من اسف ان « بنك الدّم » عندنا افلس تماما نتيجة لظروف الحرب الاهلية بحيث لم يتبقّ لنا منه أي مدّخر، ولا قطرة واحدة، تصوّرا . . .

واستطردت:

ـ انني اتمنىّ لكما الوفيق من كلّ قلبي في الحصول على متبرّعين بدمائهم، فاسرعوا واتوا بهذا الدم بأي سبيل ولو كان عن طريق بذل الاموال المغرية.

ولم نتمهّل كثيرا، فقد هرولنا الى الخارج . . . وذهبنا نطوف الجمعيات القبلية اليمنية المنتشرة هنا وهناك . . ودخلنا أول جمعية من هذه الجمعيات وقت القيلولة، حين كان الناس يجتمعون لمضغ القات، ووجدنا الكثيرين من « المقيّلين » معصوبي الرؤ س والايدي بالاربطة على الجراحات، ورغم ذلك فقد كانوا يمضغون القات، وسمعنا شذرات من الاحاديث هنا وهناك تتناثر جملا مفيدة وغير مفيدة من الشّفاه تتباهى باراقة الدّماء في الاقتتال الاهلي وكيف انّ الفـريق اوذاك قتلوا ونسفـوا واحـرقـوا ودمّـروا واراقـوا الدماء . . . الكثير من الدماء.

ووقفت اتحدّث الى الجميع حول مشكلة صديقي واهيب بهم ان يسارعوا معنا للتبرع بدمائهم انقاذا للمريضة التي سوف تموت اذا لم تسعف بالدّم، ورحت اصوّر لهم حالها وحال اطفالها الاربعة فيما لو قدّر لها ان لا تجد هذا الدّم . . .

وكان « حامد » يجلس معي وانا اشرح هذا كلّه للمقيّلين وعيناه زائغتان ووجهه مربّد.

ولكن . . كنت كمن يصرخ في واد، فقد كان الجميع يحملقون في وجهي وعلى وجوه بعضهم آيات الاستنكار، وسمعت من يهمهم قائلا:

ـ دم؟ . . . هل هنا معقول ؟ اتبرّع بدمي ؟ هل جننت؟ .

وكدت اصرخ فيهم:

ـ بل انّكم مجانين بالفعل حين تريقون دماءكم في الاقتتال الاهلي . . . وتبخلون بقطرات من هذه الدماء في سبيل نجدة امرأة توشك ان تموت . . .

كدت اقول لهم ذلك لولا انّني تذكّرت بأنني وصديقي ماجئنا للمشاجرة وانما نحن بصدد مهمة عاجلة تتطلب الصّبر والمصابرة والاحتمال . . والاقناع.

وطفنا الكثير من الجمعيات ننشد التبرع بالدّم دون جدوى، حتىّ كدت ايأس لولا انّني اشرت على « حامد » ان لا نضيّع الوقت عبثا، وان عليه ان يجمع من يستطيع ان يجمعهم من الاصدقاء المقرّبين الينا

وان اقوم إنا بنفس المهمة ، كلّ على حدة، وحدّدنا موعدا للقاء في المستشفى الكبير في منطقة « خور مكسر » حيث يمكن اجراء عمليات اخذ الدّم من المتبرعين.

* * *

وجمعت من اعرف من الاصدقاء وذهبت الى مستشفى المركزي ، وعرفت في الحال ان « حامد » لم يأت بعد.

كان هناك القليلون من الاصدقاء الذين ارتضوا ان يذهبوا معي بكلّ حفاوة وسرور للتبرع بدمائهم للمريضة، وشرع الممرّضون المكلّفون بأخذ الدّماء يقّصون علينا كيف ان المتقاتلين في « الحرب الاهلية » لم يحترموا قداسة المستشفى وحرماته ، فكانوا يختطفون الجرحى من الفريقين فيفرغون فيهم الرّصاص ويجهزون عليهم حتىّ ضجّت ادارة المستشفى واضطرت الى الاستنجاد بالجيش لوقف حركة اختطاف وقتل الجرحى في المستشفى، وكيف كان الممرضون والاطباء يعملون ليل نهار بلا كلل ولا ملل في انقاذ من يستطيعون انقاذهم رغم التهديدات المتوالية من هذا الفريق او ذلك، وراحوا يحكون لنا كيف ان العمل لم يكن يتوقّف ليل نهار في المستشفى فلا وقت للراحة، ولا حتىّ للأكل ، فقد كان كلّ من في المستشفى يعملون. . . ويعملون بلا توقّف ، والى حدّ الاجهاد، ويغمى على بعضهم من شدّة الارهاق وهم يحاولون الانقاذ ما امكنهم ذلك، وكان بنك الدّم يفلس وينضب وليس هناك واحد يستطيع ان يغامر فيذهب للتبرع بدمه، حتىّ في الحالات التي توقّف فيها الاقتتال ، وكيف ان

السّفير الهندي والسّفير الهندي وحده كان يعمل على نقل ابناء الجالية الهندية للتبرع بدمائهم لاولئك الذين يحتاجون الى الدم . . .

اجل . . لقد كان هناك نقص في الوعي والشّعور بضرورة التبرع بالدّم بين ابناء الشّعب وافراده حتىّ في حالات السّلم ، ورغم ذلك فقد كان « بنك الدّم » عامرا بالدّم لأن هناك مجموعة من الاوروبين وابناء الجاليات الاخرى كانوا قد سجّلوا اسماءهم ويجيئون الى المستشفى في ايام محدّدة للتبرع بدمهم . . . وذلك قبل اندلاع نيران الفتنة .

وتلك هي الحقيقة المؤلمة . . . كما قالوا لنا هنا في المستشفى . . .

وكنّا نتأمل ما يقولون وفي اعيننا المشاهد الكثيرة المضنية للدماء التي سالت انهاراً في الاقتتال الاهلي . . . دماء الذين يقتتلون وينزفون ويتضابر وجودهم شعاعا من خلال الدماء المنبثقة من الجراحات . . . في اقتتال الحزبين من اجل السّلطة ووراثة الوجود البريطاني في البلاد .

كان مما يحيّرنا جميعا ان « بنك الدّم » قد افلس في حين ان امواله مهدرة تجري بددا في الشّوارع تختلط بالتراب ، وتلطّخ الجدران . . . وتسيل هدرا في كلّ المكان الاّ في مكان الذي يجب ان تذهب اليه والذي هو « بنك الدّم » في المستشفى المركزي .

وكدت انسى « حامد » الذي ابطأ عليّ ، وانا اسمع هذه الحكايات التي تشيب لهولها الرؤس لولا انّ ممّرضا آخر طلب اليّ ان اذهب معه الى كشك التلفون في المستشفى لأرد على مكالمة ، فهرولت في الحال وامسكت بالسماعة فاذا المتحدّث هو « حامد » :

ـ آلو « حامد » ، لماذا ابطأت عليّ ؟ لقد جئت قبل ساعة ومعي بعض الاصدقاء الذين يتبرعون بدمائهم، تعال انت والمجموعة التي معك ، ها؟ ماذا تقول ؟ ماذا؟ تقول انّه لا فائدة ؟ ماتت . . ؟ ماتت؟ لا حول ولا قوّة الاّ بالله .

أختي سعيدة

كانت أختي «سعيدة» هي مشكلتي الوحيدة الباقية من تلك التركة الثقيلة المكوّنة من اربع بنات وامّ تركهنّ ابي في رعايتي وذهب هو لملاقاة ربّه، ولّما كنت في ريعان الشّباب وفي بداية حياتي العمليّة فقد تكفّلت بهن. . وأصبحت ولّما ينبت شاربي بعد رجلا مسئولا قبل الاوان وأبا لاسرة كبيرة.

أجل. . لقد توفّى الشّيخ «حافظ ابو الذّهب» هكذا بغتة، وهو في اشدّ حالات مسرّاته، توفّى وعلى شفتيه ظلّ ابتسامة. حقّا لقد كان ضعيف القلب، وكان يحسّ انّه سوف يموت في ايّة لحظة، ونصحه الطّبيب ذات نوبة ان يبتعد عن ما يثيره من الهموم والمشاكل، ولم يكن ابي في حاجة الى مثل تلك النّصيحة، فقد كان بطبعه مرحاً يحبّ النّكتة ويقهقة لها حتىّ ليستلقي على قفاه، وكان اظرف رجال شلّته، ولطالما نصحنا ـ نحن اولاده ـ بعدم الاستسلام للهموم او الانفعال بتأثير الغضب، وكان يقول:

ـ ليتكم يا أولادي تنظرون الى وجوهكم في المرآة عندما تتشاجرون وتغضبون، سترونها قبيحة، قبيحة لا تطاق.

لكأنه كان يريد تجنب قلبه الضّعيف مشقة الهم ولا يريد ان يملأه الاّ افراحاً تطيل دقّاته، ولذلك كان يفرح ويمرح، ويهتبل الفرص كي يجعلنا نمرح مثله.

وذات يوم - وياله من يوم لا ينسى - جاءوا بأبينا جثّة هامدة في أحدى ليالي رمضان المقمرة، قالوا كان يسمر ويضحك كالعادة مع رفاقه بعد صلاة التراويح فاذا بالنّوبة هذه المرة تمسك بتلابيبه ولا تفارقه هذه المرة الاّ ومعها روحه.

وفزعنا فزعاً شديداً، ولم ترطّب احزاننا كئوس العزاء، والذّكر العطر الذي كان يضوّع والدي، فقد كان عليّ وحدي ان اتحمل المسئوليّة، ولعلّ من رحمة الله بنا كما قالت أمّي، أن يموت وقد بدأت اعمل، فلو كنت قاصراً لكان العذاب اشدّ وأنكى.

وكافحت السّنين العجاف، واصبحت - بالفعل - أبا في العشرين من عمره له اولاد لا يصغرونه سوى اعوام، فقد حشدت كلّ عواطفي من أجل أخوتي القّصر، وصمّمت على ان لا اتزوّج - رغم تبدّل حالي من العسر الى اليسر - حتىّ ازّوج آخر البنات...

ولكّن «سعيدة» كانت مشكلة المشاكل، وهي المسئولة عن خنتي بقسمي، وهي وحدها التي كان يبدو انهّا كانت تريد ان تعتقني من مسئوليّتي، ولكن عاطفتي كانت تأبى ذلك وترفض الاّ ان أحشر نفسي في شئونها، رغم انّني تنازلت عن قسط كبير من وساوسي وهمومي فتزّوجت، وكان ان وفقني الله الى المرأة المحبّة الطّيعة، التي كانت تحنو على «صغيرتي» سعيدة كأنها أختها أو ابنتها.

وكنت كلّما احاول ان ابوح لصديق بسّر عذابي حينما يسألني او يلحّ في استجلاء أمري. ويجيء ذكر اختي على لساني تتفتّح الاسماع لعلّها تجد شيئاً مما يرضي غرورها وافتتانها بنزق البنات، ولكنهّم لا يلبثوا ان يسمعوا على لساني من امرها عجباً.

كانت جميلة، فقد ورثت عن امّي عينيها الجميلتين الصّافيتين المشبوبتين بزرقة كأنهما قطرتان من محيط، ولكنهّا لم تكن تعتني بنفسها، ولم تكن تحسّ ابداً بميسة قوامها وكانت اقرب ما تكون الى التوحش والفضاضة منها الى الانثى ودفئها الذي يحيط كلّ جو يعمل فيه الرّجال.

ولم اكن احاول ان اغيرّ من سلوكها بغير اسداء النّصح الرّقيق أحياناً علماً بأنها اصبحت دون سائر شقيقاتها موظّفة في شركة، وشعورها بأنها قادرة على الاستغناء عنيّ وشعوري بأنني لا استطيع ان افرض عليها ما ينبو عن طبيعتها التي جبلت عليها، كلّ ذلك جعلني لا اصطدم بها ولا اتعارك معها بل.. واتحاشى دائماً ذلك.

غير أنّ همّي الأكبر كان هو بقاءها بغير زواج...

لقد تقدّم لها ثلاثة عرسان من اقاربها في الارياف، ولكنهّا كانت ترفض، وكنت اقول لها:

- لماذا يا بنيّتي؟ لماذا خبّريني؟ افتحي قلبك لي، قولي لي من هي هذه الفتاة التي لا تحلم بليلة زفافها؟

ولكنهّا كانت ترفض الاجابة زاعمة انهّا هكذا لا تريد ان تتزّوج، لأنهّا مرتاحة..

وعندما تقدّم لها العريس الرّابع فاض كيلي فصحت فيها:
- صارحيني، هل تحبّين شخصاً ما؟ هل تنتظرين احداً لقد كنت دائمًا وابداً صريحاً معك، وليس بيننا اسرار، فلماذا تصرّين على أخفاء هذا الجانب من حياتك عنيّ..؟

وأحسست أنّ «لهجتي» صعقتها، فنظرت اليّ في ذهول، وركّزت عينيها على وجهي، فأغضيت بصري، فقد كانت ذات شخصيّة رادعة، ولهذا كنت أشعر في أعماقي بأحساس عدم الخوف عليها.

* * * * *

ومنذ ذلك اليوم الذي جرى فيه ذلك الحوار، وانا الاحظ تبدّلاً وتطوّراً يطرأ عليها.
أجل.. لم يكن تقدّماً الى الأمام ولكنّه تأخر الى الوراء...

فقد لمست أنهّا تسعى الى لبس الفساتين ذات الاكمام الطّويلة، التي كأنها قمصان وكنت قد عبت عليها، ذات مرّة أنهّا لا تعتني بهندامها جيدّاً وتأبى الاّ ان تلبس الفساتين التي لا تبرز سوى وجهها وكفّيها، دون ما عداهما.

وشعرت بألم في أعماقي.. أهي تعاندني بهذا؟ تعساً لها، أنهّا لا تعاند الاّ نفسها، فمن ذا الذي يرضى ان يتزّوج فتاة في العشرين ولها مشاعر عجوز في السّتين.
نعم.. لقد زاد من المي أنّني وزوجتي نسينا ذات مرّة مفتاح البيت عند احد الاقارب ولم يكن في الوقت متسع لنعاود أخذه، فقد كان

منزل اولئك الاقارب بعيداً، وفكّرت زوجتي ان أمرّ على «سعيدة» في الشّركة لكي نأخذ نسختها من المفتاح، فلمّا سألت عنها راعني أنّ فرّاش الشّركة لم يعرفها فلمّا افصحت له عن ما اريد هزّ رأسه أخيراً وقال لي:

- فهمت.. فهمت.. تقصد الحاجّة «سعيدة»...؟

أذن.. فهم يسمّونها في العمل بـ «الحاجة»، ورغم أنّ الاسم ليس شتيمة الاّ أنّه ينطوي في مضمونه على استهانة بشبابها، شبابها الذي هان عليها قبل ان يهون على النّاس.

وكثيراً ما قضيت اللّيل ارقاً مسهداً افكّر في امرها...

وقد قالت لي زوجتي «انّ امرها محيرّ حقّاً، ولكنّك انت الآخر، امرك محيرّ، لماذا لا تدع الفتاة وشأنها، ربّما تكون قد أحبّت ففي مثل من هنّ في عمرها لا يسعهن الاّ الحبّ»

قلت لزوجتي «وهل يكون حال المحبّين، هكذا..؟ انّ من يكنّ على شاكلتها ممن يلامس الحبّ براعم قلوبهنّ يتفتّحن له، ويبرزن مفاتنهنّ في ادب وحشمة على الاقل، انظري الى عدم اعتنائها بهندامها حتىّ لقد غدت وكأنها صبّي.»

قال زوجتي «يخيّل اليّ انّ ثمة منطقة حرام في نفسها، لا تريد احداً ان يقتحمها عليها، قد تكون مصابة بصدمة عاطفيّة، شخص أحبّته فتزّوج غيرها، أو مات نم.. نم يا عزيزي ولا تطيرّ النّوم عن عينيّ فقد عقد الكرى بمعاقد أجفاني».

ولكنّني لم أنم. . .
أنّني أريد أن اقتحم هذه المنطقة واتغلغل في صميمها، ولكّن ما بذلته بعد ذلك كان جهداً ضائعاً، فقد رصدت حولها العيون لتنبيء عن حركاتها وسكناتها، ولكّن المترصّدين عادوا بخفّي حنين.

أجل. . لا جديد في حياتها. . لا جديد. . لا جديد.

ولاوّل مرّة اصرخ محتجاً على القدر «ترى. . ما الذي سيحدث لو كان لي مكانها أخ. . أخ ذكر بدلاً من هذه الأخت. . .»

حتىّ كان ذلك اليوم، وياله من يوم مهوّل.

أحسّت «سعيدة» بآلام مبرّحة في أحشائها، لم تطق معها وهي الكتومة على الصّبر، فجاءتني ويدها على بطنها وبلوزتها الطّويلة الاكمام تغطّي كلّ يديها، وقالت لي أنهّا لابدّ ان يراها طبيب، تذهب اليه او يأتي هو اليها.

وذهبنا الى طبيب صديق، ظلّ يفحصها زهاء ساعة آخذاً صورة بالاشعّة لامعائها واعطاها بعض الاقراص المسكّنة.

وفي اليوم التالي كان هناك «كونسلتو» اطبّاء يجتمعون حول صورة الامعاء بالاشعة وكانت عيونهم تحملق في وجهينا معاً عيون فيها ما يشبه الرّعب، وفيها غرابة أكثر، يرتسم من خلال جحوظها وعدم الكفّ عن البحلقة فينا.

وتقدّم منيّ صديقي الطّبيب الشّاب وقال لي:
ـ المسألة خطيرة، حالة شاذّة وان كان لها نظائر في انحاء العالم.

قلت له وانا لا أكاد اعي ما أقوله:

ـ قل لي يا دكتور، ولا تشفق عليّ، لقد اتعبتني هذه البنت ولست ادري لماذا لم يرزق الله ابوّي بأخ بدلاً عنها. قال لي الطبيب وهو يبتسم:

ـ سوف يكون لك هذا الاخ الذّي تمنّيته. . . فأجبته:

شكراً لك يا صديقي، لقد كنت لي دائماً هذا الاخ والصّديق، ولكنّني اقصد انّ اختي هذه اتعبتني، قل بربّك ما بها ولا يداخلك احساس بالشّفقة عليّ.

قال الطّبيب:

ـ اصغ اليّ بكّل حواسك، بأن اختك هذه ليست انثى، أنهّا ذكر، افهمت؟ ذكر. صعقت. . أحسست بوعدة تجتاح جسمي كأنها زلزال:

ماذا تقول يا صديقي الطّبيب، انا لا افهم شيئاً.

ـ كذلك نحن، اوّل مرة، غير انّه لابّد من اجراء عمليّة جراحية مهما كان الامر لأنهّا مسألة حياة او موت، فهاذ الالم في امعائها سوف يقتلها، وخير لك ان تتحوّل اختك الى رجل من ان تحمل لقب «المرحومة».

ولكن. . كيف استطيع ان اصارحها.

ـ لا عليك، سوف اتولى انا ذلك.

وتركني الطبيب واتجه اليها، امّا انا فلم استطع احتمال الموقف،

استأذنتهما متعلّلا ببعض المهام، قائلاً لها وانا اودّعها مع الطّبيب:

ـ افتحي اذنيك جيّداً لما سيقوله لك، هذا مصيرك انت وحدك وليس لي به ايّ شأن.

*　*　*

ورجعت الى المنزل وانا في حالة يرثى لها من القلق والعذاب... وعندما قصصت النّبأ على زوجتي قالت: كان يبدو على محيّاها قلق مثلي، حقاً. لم يكن نبأ محزناً ولم يكن نبأ ساراً، فقد ألفنا ان نعامل سعيدة على أنهّا فتاة، فما الذي سوف نصنعه عندما يتغير الموقف...؟

ورحت اجمع في ذاكرتي قصاصات من الحوادث الغريبة، حاولت ان استجمعها لاستّدل من خلالها على ان «سعيدة» لم تكن ابداً لتستجيب لذلك «الانفتاح» الذي يبدو من الرّجال حيال البنات... وكان في طبعها بعض الخشونة، بل واذكر أنّني دخلت الى المنزل بغتة ماراً بغرفتها، وعن غير قصد، استرقت عيني الى ما وراء الباب المغلق، وكان مغلقاً في غير ما احكام، فإذا بي أشهد ويا للغرابة يداً مجلّلة بالشعر، تعالج فتح الدولاب.

وقبل ان ادقّق النّظر، شعرت باسراع اليد في التراجع الى الوراء فوقفت هنيهة احقّق النّظر، فاذا بي المح اختي «سعيدة» تطيل كمّ بلوزتها لتغطّي رسغها ولا تبرز سوى الكفّين.

وطفقت استعيد مع زوجتي حوادث مماثلة. فقد اقسمت زوجتي

بانّ «سعيدة» تحتفظ بموس للحلاقة، تشذب به ما كان يبرز من شعر خفيف فوق شفتيها، ترى.. اذلك هو السّبب الذي من اجله لا تتيح لي ولا لأي شخص آخر ان يدقّق النّظر في وجهها..

وبينما نحن نضربِ اخماساً في اسداس، دق جرس الهاتف فانتفضنا، وامسكت بسمّاعة الهاتف فاذا المتحدّث هو صديقي الطّبيب الذي طلب مني ان اسارع الى الحضور الى المستشفى، :

ـ بسرعة.. ارجوك، لقد نجحت العمليّة نجاحاً باهراً... قلت مضطرباً متلجلج اللّسان:

ـ انا لا اكاد اصدّق كيف حدث هذا تحوّلت «سعيدة» حقّاً الى رجل..؟ قال لي:

ارجوك.. لا تضيّع الوقت وسأشرح لك كلّ شيء حينما تحضر، المهمّ ان تحضر سريعاً جدّاً لترى هذا «الاخ» الذّي طالما تمنّيته... اخاك «سعيد».

لله يا محسنين

كان عبد الصمد «ابو الوفا» الموظّف المنسيّ بدائرة الآثار يعاني في ذلك اليوم شرودا وهمّا لا يدري من اين اتاه. شرود لم يعاني مثله منذ ان صعق التيّار الكهربائي زوجه «خديجة» التي تركته وحيدا منذ خمس سنوات.

وكان « عبد الصّمد » يجلس في ذلك اليوم على كرسيّه المعتاد بمقهى الحاج رمضان، مشتّت اللّب. . حائرا يعاني في باطنه صراعا محتدما منذ ان جاءه « عمّ قاسم » ، ذلك الشّيخ المسنّ المنهك وفي عينيه الكليلتين دموع كثيرة ، ورجاه ان يسمح له بالنوم ليلا في فناء منزله ... ذلك الفناء الذي بناه مؤخرا حول البيت كبداية لمشروع حديقة صغيرة يربيّ اشجارها ويطفيء بعض شوقه القديم الى الزّراعة.

لقد كان « عمّ قاسم » بيّاعا متجوّلا للمناديل والعطور الشّعبية الرّخيصة، وتقدمت به السّن وفقد نور عينه اليمنى فأصبح ـ بالاضافة

الى شيخوخته ـ عاجزا تمام العجز عن العمل ، فاحترف الشّحاذة واصبح يتّخذ من مقهى الحاج « رمضان » وغيره من القهوات القريبة المجاورة مركزا لنشاطه، اذ يكفي ان يقف في ركن منزو منها ، أو متجوّلا بين المقاعد التي يجلس عليها الرّواد ببطء تخبّ فيه قدماه حتّى يدخل كلّ زبون يده في جيبه وينفحه ببعض القطع النحاسيّة .

وأحسّ « عبد الصّمد » نحوه برثاء لاحدّ له ، فوافق في الحال على طلبه وسمح له بالنّوم في أحد اركان السّاحة المحاطة بسور منزله قائلا في نفسه « لقد كفاني طلبه مؤونة استئجار حارس ليلي » . . .

على أنه احسّ بعد ذلك بهمّ يداهمه . . .

ترى . . هل يكلّ بصره هو الآخر فيصبح مثل « عمّ قاسم » أو قريبا من حاله بعد عمر؟

انّه يعمل كاتبا في دائرة « الآثار » منذ خمسة عشر سنة . . موظّفا منسيّا يحيا حياة لا طموح فيها ولا آمال ، وقد كانت حياته مع المرحومة زوجته سلسلة من المتاعب لانهاية لها ، فهي طموحة وهو خامل، وهي مناكفة وهو مسالم، وهي تحبّ المظاهر وتهدر مرتبه الضّئيل في كماليّاتها بلا رحمة وهو قنوع. وقبل ان يحمّ القضاء ويصعقها التّيار الكهربائي كانت قدماه قد تعبتا من « المشاوير » الطّويلة بالسّيارات الى بيت اهلها البعيد امّا ذهابا اليها لاسترضائها عقب شجار بينهما وامّا ذاهبا بها لتقضي أياما هناك تنفّس بها عن كربها وآلامها معه ـ كما تقول ـ .

وقد ظلّت قهوة الحاج « رمضان » هي المكان المفضّل الذي يقضي

فيه « عبد الصّمد « اوقات العصارى » منذ ما يقرب من عشر سنوات اذ لا يكاد ينتهي من تناول طعام الغذاء ـ بعد أوبته من العمل ـ وينام نوم القيلولة هينهات قصار حتى وجد نفسه يتهيّأ للخروج الى المقهى يقضي فيه ساعات العصارى وشطرا من اللّيل يلعب « النرد » ويدخّن « النارجيلة » ويحتسي اقداح القهوة بين باقة من الصّحاب الذين يتفاوت اختلافهم الى القهوة تفاوت ظروفهم وأحوالهم.

لا والحقّ . . أن الزّمان يتغيرّ ، والنّاس يتغيّرون ، وقهوة الحاج «رمضان» هي وحدها التي لا تتغيّروان تبدّلت بعض معالمها الطّفيفة كشراء « الحاج » لقطعة الأرض الفضاء التي تقع امام القهوة حتىّ تتّسع لمزيد من الرّواد ، وفتحه لمحلّ صغير يبيع بعض اللّوازم الخفيفة وعدا ذلك فانّ يد الزّمان لم تمتدّ الى روح القهوة ولم تطفيء سماتها القديمة . . وحتىّ الحاج نفسه لم تمتدّ يد الزّمان اليه بتغيير يذكر رغم تيّسر حاله فهو يعقد الصّفقات ويربح آلاف الدنانير وهو جالس الى جوار صندوق « الحساب » في القهوة بوجهه الجامد وسماته الجادّة لا يجشّم نفسه عناء الحركة. ولماذا يتحرّك والبركة في نجليه اليافعين اللذين يقومان مقام قدميه.

لقد اصبحت القهوة كلّ مجتمع « عبد الصّمد » ، وكلّ اصدقائه ، وقد اقلع الكثيرون من اصدقائه عن ارتيادها وحاول بعضهم ان يزيّن له تركها قائلين « انّ القهوات لم تعد ملاذ الرّجل العصري وإنّ ثمّة مجالات كثيرة يستطيع المرء فيها ان يقضي اوقات فراغه ، فهناك النّوادي ، والشّواطيء ، ودور السّينما، وهناك « التلفزيون » الذي

دخل مؤخرا حياة البلاد ، غير أن كلامهم لم يستطيع ان يحرّك فيه ساكنا، وكلّ ما استطاع ان يحدثه من اثر فيه هو أنه اشترى جهاز «تلفزيون» بالتقسيط المريح.

وقد ظلّ الخادم الصّغير « جازم » يقضي له شئونه المنزليّة فلم يبد بيته الصّغير المكوّن من غرفتين وصالة ومرافق وسطح فسيح قذرا مهملا كبيوت العازبين ، وكانت هناك امرأة عجوز واظبت على المجيء الى بيته لغسل ملابسه وكيّها مرّة واحدة بدلا من مرّتين في الأسبوع كما كانت تفعل في حياة المرحومة.

أجل . . لقد طرأت على « البلاد » تغييرات عديدة، منها دخول عدن في مكان يسمّى بـ « اتحاد الجنوب العربي » الأمر الذي اصبحت معه دائرة « الآثار » « موقفا » « اتحاديّا » بعد ان كانت موقفا لعدن وحدها، قبل ان تصبح ولاية من ولايات ماكان يسمّى بـ « الاتحاد » . ولكن « عبد الصّمد » لم تكن لتعنيه تلك التغييرات سوى في شيء واحد هو أن ثمّة همس بأن « المسئولين »سوف ينظرون في أمر الموظفين المنسيين الذين مضت عليهم في الخدمة اكثر من عشر سنوات وهم في مراكزهم، وهذا أمر يهمه فهو يطمع في الحصول على درجة (د-٣) التي يحلم بها ، وهذا هو المعنى الوحيد الذي فهمه من وراء ذلك التغيير السّياسي . . . الشّامل في البلاد . أما عدا ذلك فليس له في «السّياسة» ناقة ولا جمل ، فلا هو متحمسّ لذلك الحزب او تلك المنظمة ولا هو بمبال أجاء الاستقلال ام لم يجيء حتى لقد قال عنه بعض أصحابه من غير الموظفين في دائرة الآثار بأنه ـ بالفعل ـ قطعة

اثريّة حيّة في قسم «المتحف» الذي يعمل فيه.

ورغم أن « عبد الصّمد » يدبّ بخطى حثيثة نحو الأربعين الاّ أنه ظلّ شيخا في روحه ، يخاف الله ولا يقطع فرضا واحدا من الفروض الخمسة ويصوم رمضان بتمامه، وتلك تقاليد دينية ، حميدةتوارثها عن والديه المرحومين، فلم تكن له أية مآمرات ، ولم يعرف من النّساء الاّ زوجه، ولو لم يلبس القميص والبنطلون وظلّ مرتديا الجلباب والمعطف والعمامة كما كان يفعل منذ بداية عهده بالوظيفة اذن لكان شيخا تلوذ به الشّفاعات وتحيطه الكرمات، فقد كان صوته الشّجي يرتّل القرآن بعد ان يعود من صلاة الفجر بتهجّد وايمان يبعثان في النّفوس الكثيرون من جيرانه في الحيّ الخشوع واليقين بأنه رجل صالح مافي ذلك شكّ.

ومن حسن حظّه انّ الصّحاب في ذلك اليوم لم يوافوا القهوة عدا صديقا أو اثنين احتسيا بعض فناجين الشّاي ثم اسرعا بالخروج مدّعيين الانشغال، وظلّ وحده والشّمس تقارب الغروب يدخّن «النارجيلة» ولا يكاد يعبأ بالضجيج من حوله ، وينفث دخانها في الهواء متلذّذا وقد سرح طرفه وانشغل فكره وهو يكابد تلك الحيرة وذلك القلق والشّعور بالحزن الذي لا يدرى له مأتى.

ووجد نفسه يسلّم الأمر لهمومه ومشاكله. . .

لقد مضت عليه الآن سنوات خمس منذ توفّت « خديجة » ، وانّه ليحنّ الى الزّواج حنينا يعتصر قلبه ويتوقف الى حياة كلّها استقرار ودعة وأمن مع زوجة اخرى تجاريه في دعته وترضى بالحياة في كنفه . .

حياة ليس فيها همّ ولا نقار ولا شجار.

وليس هناك افضل من ان يشدّ رحاله الى قرية ابيه في « اليمن » ليقضي عطلة قصيرة بين اقاربه ويختار من هناك زوجة قرويّة بسيطة ، ساذجة ، صغيرة السّن وينتشلها من وهدة الفقر والحياة البدائية السّاذجة فترى أفقه المحدود المتواضع دنيا فسيحة ، وحبة ، مليئة بالغرائب والمدهشات.

كان هذا التفكير يلازمه منذ سنتين تقريبا ، يلحّ عليه الحاحا طويلا حتىّ لقد صارح به صديقه القريب الى نفسه « علي نور » ولكنّ « علي نور » لم يكن من رأيه فقد قال له أن الفتاة القروية لن تلبث ان تفتح عينيها لمباهج المدينة فتورثه المتاعب وتكلّفه كثيرا حين تتفتّق أكمام عقلها عن دنيا لم تكن لها بها سابق عهد ، وضرب له الأمثال على ذلك غير انّ « عبد الصّمد » لم يقتنع بذلك...

فقد كان صديقه يخاتله ، كما اعتقد ، ويريد اصطياده زوجا لابنة عمّه الأرملة المسنّة ، ولطالما لوّح له بذلك من طرف خفّي قائلا انّ رجلا في مثل حاله لا تصلح له فتاة يافع صغيرة السّن وعلى الأخص عندما تكون قروية ، وانّ خير الأمور ان يبني بامرأة سبق لها الزّواج وأحسّت بلوعة فقدانها للزّوج وعانت مرارة الترمّل ، فتحفّ به ، وتسعده ، وتحرص عليه غاية الحرص وتهيّء له السّعادة والرّاحة والاستقرار.

وسواء أكان الرّجل صادقا أم أنه اراد ان « ينفق » سوق ابنة عمّه ، فان المشكلة الكبرى التي يعانيها « عبد الصّمد » كانت في الحصول

على المال اللّازم لزواجه، فقد ارتفعت مهور الزّواج بشكل لم يسبق له مثل ، وانتشرت عدواها حتىّ الى الأرياف ، ورغم أن بعض الولايات في المنطقة قد اصدرت قوانين لتحديد مهور الزّواج الّا ان «التحايل» على القوانين كان امرا سهلا يتساعد عليه الطّرفان المتصاهران ، وقد سمع اخيرا من يقول له بأن مهر « العروس » في قرى اليمن قد بلغ ألف ريال عدا المطالب الأخرى.

وداهمه غمّ شديد، وكلّما رنا ببصره الى « عم قاسم » وهو يمدّ يده للمحسنين أحسّ بالغم يملأ قلبه ويزحم مشاعره.

لقد كان « عمّ قاسم » رجلا قويّا . . وكانت يداه تشدّان سلّتين كبيرتين ممتلئتين ببضاعته وهو يطوف الشّوارع مناديا عليها، فتتلقّفه صيحات ربّات المنازل من الشّرفات ، ثمّ داهمه « الدرن » فاقتعد في «المصحة» اسابيع عديدة ولما خرج منها اوصوه بالرّاحة ، ولكن . . أنىّ له بها ومن ذا الذي سيعطيه اذا ارتاح ، وهكذا لم يجد مناصا من مواصلة العمل حتىّ ذبل عوده وهاجمه الرّمد، الصّديدي أكثر من مرّة فكلّ بصره، وذابت اكوام الشّحم واللحم التي امتلأ بها جسمه حتىّ اضحى نحيلا، جاف العود، ثمّ انتهى الى هذا المصير الذي انتهى اليه.

* * *

انتشله من حيرته صوت « المؤذّن » في مسجد « النّور » ينادي لصلاة المغرب فنهض من توّه يلبّي الندّاء مصمّما ان يتشاغل بعد صلاة المغرب بالتلاوة حتىّ يصليّ العشاء. . حاضرا.

وعند اوبته الى البيت لمح « عمّ قاسم » مكّوما في أحد الزّوايا
مفترشا سريرا متداعيا من الحبال، وفتح الباب بمفتاح اعطى نسخة
منه للخادم الصّغير، الذي كان يؤثر النّوم عند بعض « بلديّاته ».

غير انّه استفاق عند منتصف اللّيل ظامئاً . . ولم تمتد يده الى زرّ
النّور فقد كان القمر في الخارج ساطعا يرسل شعاعه عبر النّافذة
المفتوحة يضيءجزءا كبيرا من غرفته، فسعى الى القلّة ، فشرب ثم
رجع حثيث الخطى الى الفراش.

وقبل ان يغمض عينيه سمع دقّا خفيفا في الخارج ، ووجد نفسه
يرهق السّمع ثم يتلصلص في هدوء ويطلّ من طرف خفيّ عبر النّافذة
دون ان يقرّب رأسه ،فاذا به يجد « العم قاسم » هو الذي يدقّ
الأرض فتنحنح حتىّ لا يباغته فما كان من الآخر الاّ ان توقّف عن
الدّق بغته، فسأله « عبد الصّمد »

ـ خير يا « عم قاسم » . . ما الذي حدث؟

وارتبك « عم قاسم » ، وتشتّت منطقه، ثمّ . . مالبث ان استعاد
رباطة جأشه قائلا بأن « الناموس » كان يقرصه فلم يستطيع النّوم فما
كان منه الاّ ان حمل حجرا وشرع يضرب اطراف السّرير حتىّ يتناثر
« الناموس »من بينطيّات الحبال .

وأفاق « عبد الصّمد » من نومه في السّابعة ، فقد لبث على غير
عادته . . أرقاً يفكّر في همومه ، مسترسلا في تلك الحيرة التي تداهمه لا
يدري كيف يمكنه ان يدّخر من مرتبه المتواضع المبلغ الذي يكفي
للزواج المأمول.

وفي عجلة . . ارتدى ملابسه وخرج ميمّما صوب عمله بعد ان اشترى في طريقه بعض الشّطائر.

عندما عاد بعد الظّهر لينام نومة « القيلولة » قال له خادمه الصّغير

- ألم تسمع بالخبر بعد . . ؟ « عمّ قاسم » البقية في حياتك . . مات داهمته سيّارة وهو يجتاز « الطّوار » وعندما حملوه الى المستشفى كان قد اسلم الرّوح.

باغته الخبر . . فهو يعلم أن « عمّ قاسم » مقطوع من شجرة لا أهل له والا لكانوا قد حاولوا مساعدته بشقّ السّبل.

واستطرد الخادم قائلا بأنه صادف « عمّ قاسم » عند باب « المطعم الشّرقي » فحيّاه ورحّب به في ضيافتهم وانّ «عمّ قاسم» فرح هو الاخر اذ وجد له في بيت «عبد الصمد» ولم يصدّق الخبر في مبدأ الأمر الّا انّه تأكد فيما بعد بأن المحول على الأعناق جثّة هامدة هو حقّاً «عمّ قاسم».

وسرعان مانسي « عبد الصّمد » الحادث ، وهو في حلقة الذّكر في « الشلة الرّفاعية » ، بعد اسبوع واحد من وفاة « عمّ قاسم »، وكان قد دعا ربّه دعاء مبتهلا ان يفرج كربته.

* * *

في الفجر، وهو يعود من صلاة الحاضر، خطر له «عمّ قاسم» فجأة وهو يرى بقيّته . . . سريره-الحبال المتآكل الذي كان على حاله في فناء المنزل.

حدّثته نفسه ان يلقي نظرة عابرة على هذا الأثر ، وكاد يقفل راجعا لولا أنه لمح آثار حفرة مطمورة بجوار السّرير.

دقّق النّظر فيها ، فتذكّر ذلك « الدّق » على الأرض الذي إستدعى انتباهه ذات ليلة ، وقال « عمّ قاسم » بأنه « تطهير »للسّرير من النّاموس.

ترى . . لماذا كان يحفر؟

امتدّت يداه تنبش الحفرة ،فاذا بأصابع كفّه تصطدم بكيس. . من « النايلون » صغير . . . مربوط بفتيلة .

لقد كان «عمّ قاسم» كليل البصر فلم يفلح في «طمر» الحفرة. .

انتشلت يده الكيس، فاذا بداخله« لفائف » من الورق . . ما أن وقعت عيناه عليها حتىّ شهق شهقة المفاجأة.

اجل . . لقد كان بداخل الكيس مبلغ خمسمائة جنيه من فئات الخمسة والعشرة. . جنيهات استرلينية، لاشكّ أن « عمّ قاسم » استبدلها من الصّرافين العموميين في المدينة بالدنانير التي لا شكّ الآن أنه كان يملكها.

خمسمائة جنيه لا تنقص سنتيها واحدا. . .

حملها « عبد الصّمد » في حنان . . وكأنه يحمل حمله القديم

بـ«الزّواج» وقد تحوّل فجأة الى حقيقة. .ومضى الى الدّاخل ، ثمّ وضعها في عناية في الدّولاب وأقفل الدّولاب بالمفتاح الذي كان معه وتوجّه بيديه الضارعتين الى السّماء وهو يقول :

ـ « ألف رحمة عليك . . يا « عمّ قاسم »

المجموعة الثانية

- ○○ عهد «طربوش»
- ○○ آه . . . ياعيني
- ○○ لن انتقم
- ○○ مهجة



عهد طربوش

كانت «البلديّة» قد منحتنا بقاعاً مجّانية من الاراضي لنبني عليها منازل صغيرة وذلك تنفيذاً لخطّة مكافحة أزمة السّكن المسماة «ساعد نفسك».

وبدأنا نبني منازلنا الصّغيرة في تلك البقعة النّائية التي لا تبعد على المقبرة العموميّة الاّ ببضعة مئات من الأمتار، فقد كانت «البقعة العامة» خلاء موحشاً يبعث على الشّعور بالوحشة حتّى في النّهار حين تتوسط الشمس كبد السماء ويهجم جحيمها دفعة واحدة ليحيل ذرات الرمال تحت الأقدام العارية الى حبّات من الجمر ينبعث من جوفها غبار كالبخار المتصاعد من اناء مغلّي، أما في الليل، حين يسود السكون ذلك اللظى الملتهب الذي تنفثه الشّمس ويتحوّل الى سواد قاتم تطرّزه عيون النّجوم فإنّ المنطقة تأهل بنباح الكلاب. . . كلاب من الحيوان وكلاب من البشر ارادوا ان يلتحفوا بسواد الليل. . حيث لا تراهم الاّ عيون النّجوم، تلك العيون التي ترى ولكنهّا تبتلع في رؤاها «الأسرار» فلا تبوح للنهار بما دار في الليل.

وبدأ العمران يدبّ في قلب هذه الصّحراء الموحشة الكئيبة التي تبعد عن مشارف المدينة كأنها تربض عند اقدامها ذليلة صاغرة.

وارتفعت جدران البنايات السّكنية الصّغيرة وانتشرت الحفر التي وضعت كأسس للمنازل الجديدة.. معظمها من الآجر المحروق والطّين، فبدت من بعيد كما لو كانت اطلال مدينة اثريّة اكتشفت وعثر عليها من تحت الأنقاض.. تحكي مجداً آفلاً وشمساً لأفق قد غربت وانطفأ سطوعها كما تنطفيء الحياة في جسد فتيّ يضّج بالحياة.

وبدا أول «صفّ» من المنازل في المنطقة كشريط طويل، ثم توالت ايدي العمران تعمل في هذه البيوت الجديدة وتقيم صفّاً اثر صفّ حتىّ بدأت الحياة تدبّ رويداً رويداً في جسد الصّحراء الهامد.

كان كل شيء ينبيء عن أنّ ثمة قطاع من الصّحراء سوف يحيل العمران مساحاتها الشّاسعة الى أنس يبدّد سكون هذه الوحشة المقيت، وان هذا السّكون المنفّر سوف يتمزّق ويعمر الانسان هذا اليباب المقفر.

وما هي الاّ بضعة شهور عديدة حتىّ كانت صفوف المنازل تبنى صفّاً اثر صفّ فتحوّلت المدينة الناشئة الى مدينة عامرة تبعد عن المدينة الأم التي تقع هناك، في البعيد.. البعيد عن منطقتنا.

كانت منازل«المدينة الجديدة»ذات طابع واحد.. حجماً ومحتوى لقد فرضت البلدية علينا خطّة معيّنة في البناء... فحجم المنزل يجب ان لا يزيد عن كذا متر مربع، ومن اجل ذلك يتكوّن المنزل الواحد من غرفة واحدة وصالة ومطبخ ومرافق وهكذا، طلب بعض

المواطنين قطعتي ارض لا قطعة واحدة بحجّة انّ حجم منازلهم ستصبح صالحة لسكن الحيوانات لا لسكن البشر.

وبدأت المتاعب...

انّ المنطقة خالية من وسائل الحياة، فهي هامدة بعد الغروب لانعدام اعمدة النور الموصلة للكهرباء في المنازل وهكذا صار اعتمادنا على لمبات الغاز ووسائل الإضاءة البدائية.

وكانت السّوق البعيدة عنّا.. من المتاعب التي كانت تؤذينا، وعندما فتح الحاج (حسن الشّحاري) أول دكّان في المنطقة جعلته ارباح الاستغلال يفتح دكّانا ثانياً.

امّا كبرى متاعبنا فقد كانت... مياه الشّرب.

انّ الماء بدا لنا كأعز واغلى ما يمكن ان يحصل عليه الانسان، فقد كانت هناك انبوبة في منطقة تبعد قليلاً عن منطقتنا، وكان العراك لا يهدأ حول هذا «الخيط المجّاني» من الماء.

ذلك الخيط الذي تسيل خيوط من الدّماء.. دماء المعارك التي لا تهدأ الاّ حين يضع حارس البلديّة قفل الانبوبة في السّلسلة الواصلة بها وهو يعطي المتعاركين ظهره بلا مبالاة فهو قد ألف مشهد العراك يتجدّد في صباح اليوم التّالي.

وارتفع سعر الصّفيحة الواحدة من الماء حتىّ بلغ شلنا واحداً في بعض الأحيان.

* * *

وشهدت المنطقة ذات صباح «زفّة» عظيمة . . . كان الأطفال يحيّونها بقرع العيدان على الصّفائح الفارغة والاناشيد الطّروبة، وفتحت «مزاليج» البيوت، وأطلت الرّؤوس لترى «سرّ» هذه «الزفّة» الكبرى، فرأوا لأول مرّة - «طربوش» مورّد الماء وهو يسير في خيلاء عظيمة ومن خلفه جمله الذي كان يجرّ عربة عليها برميل كبير من الماء.

وطافت الزّفة بـ «طربوش» كل انحاء المنطقة وكأنها تدشن «انقاذه الأعظم» لها بالماء، فان «طربوش» الذي بدا في ذلك اليوم وكأنه فاتح من الفاتحين الحميريين، قد تعهّد ببيع الماء لنا الأمر الذي يبشّرنا بحقن دمائنا التي طالما سالت في تلك المنطقة الأخرى المجاورة والتي بها انبوبة مياة مجّانية يتقاتل حولها اصحاب الصّفائح الفارغة.

كان «طربوش» أسمر البشرة، في نحو الخمسين من عمره، لئيم العينين. . بارز الجبين. . قميئاً. . يلبس مئزراًوفانلة ذات كمّين على الدّوام، ويعقد حول رأسه شالا اصفر اللون. . وكانت يداه مليئتان بالشّعر. . واسنانه صفراء من فرط استعماله للطباق المدقوق الذي يضعه دائماً في علبة صغيرة ويتركها في ركن قصيّ من عمامته الصّفراء المعقودة حول رأسه. . . وله صوت كالزّئير، يتناثر الرّشاش من فمه حين يتكلّم، وهو لا يتكلّم الاّ برماً متضجّراً. . فما هي الاّ ايّام حتىّ خبا حماسنا له فقد كان يستغلّنا استغلالا بشعاً بصفته المورد الوحيد للماء في المنطقة بلا منافس منحته «البلديّة» حقّ هذا الاحتكار.

لقد كان يتعمّد اذلالنا ببيعه الماء لنا بسعر فاحش جدّاً، اذ كان يأخذ عن كل صفيحة نصف شلن فضيّ، ثم لا يملأها.

وفي بعض الأحيان كان يجيئنا . . متأخراً بعد ان يكاد الظّمأ يقتلنا وحين يهلّ موكبه العظيم من بعيد تفتح الأبواب وتطلّ الرّؤوس من الشّبابيك ويهرع الرّجال في استقباله عند ابوابهم كأنه صاحب صولجان وهيلمان . . . وفي بعض الأحيان كان يتدلّل فلا يجيء بالمرّة امعانا منه في اشعارنا بانه صاحب الفضل الأكبر علينا . . . .

لقد اصبح اسم «طربوش» لا يفارق الشّفاه مرّة واحدة في اليوم . . .

دائمًا ما كان يتردّد على الألسن . . وتلوكه شفاه الكبار والصّغار . . لأطفال والمسنّين . . الرّجال والنّساء . .

طربوش . . جاء ، طربوش لم يجيء . . . طربوش سوف يجيء بعد قليل . . هذا هو موعد طربوش اللهم ارفع سخط طربوش عنّا . . .

ضّجت المنطقة كلّها من طغيان «طربوش» . .

كان الشّجار لا يهدأ بينه وبين ارباب البيوت ، الاّ ليتجدّد في اليوم التالي فقد كان يتعمّد ان يعطي هذا صفيحتين وذاك ثلاث صفائح من الماء فيدبّ الشّجار لا بينه وبين السّكان فحسب، بل . . وبين السّكان بعضهم بعضاً فقد أمسكت الحاجة «زينب» برأس «حسن الشّحاري» ذات مرّة لأن «طربوش» اعطاه صفيحة زائدة من الماء كان من حقّه ان يبيعها للحاجّة ، وعندما هرعنا لنخلّص رأس «حسن الشّجاري» من بين مخالب الحاجّة العتيدة كان راديو مقهى سلطان قباطي» المفتوح عن آخره يذيع انباء التوتّر الدولي الحاد بين المعسكر الشّرقي والمعسكر الغربي .

* * * *

وعشنا في دوّامة من القلق . . .

عشرات «العرضحالات» قدّمناها للبلديّة شاكين من «طربوش» ومن طغيان «طربوش» ولا مجير. وارتفعت اصواتنا الشّاكية تطالب بالماء ولا شيء غير الماء وكلّما ارتفعت هذه الأصوات الظمأى. . . بدا لنا انّ صرخاتنا تطويها صفحات الصّحراء الشّاسعة قبل ان تبلغ آذان من يجب ان تبلغ آذانهم من المسئولين.

حتىّ حدثت المعجزة. . .

قدم عمّال «البلدية» ذات صباح الى المنطقة وزحفوا الى بعض اطرافها الغربيّة وعمّالهم يحفرون الأرض هنا وهناك. . .

لقد تقرّر مؤخراً ايصال الماء الى المنازل بالأنابيب، وفي اسرع وقت ممكن بعد ان وجدت البلدية انّ العمران يزداد وأن النّاس يقبلون على بناء المساكن ويغطّون مشروع «ساعد نفسك» وبالتالي جنت «البلدية» الارباح الطائلة من جرّاء بيعها للدفعة الثانية من الأراضي بعد ان كانت قد وزّعت الدّفعة الأولى بالمجان.

ومن الصّدف الغريبة أن «طربوش» لم يأت في ذلك اليوم ليشهد عمّال البلدية وهم يحفرون لاستغلاله العذيد من القبور. فقد كان «استغلال» طربوش لا يكفيه قبر واحد. .

وبسرعة، فتحت انابيب مجّانية عديدة في المنطقة فما ان هلّ صباح اليوم التالي حتىّ كان الماء قد توفّر في المنطقة لكلّ السّكان الذين هرعوا يغترفون من الأنابيب المجانية ويقدّمون «العرضحالات» لطلب

ادخال الأنابيب الى بيوتهم ومع الطّلبات كانت تدفع الرّسوم المطلوبة للبلدية . .وكأنهم ينتقمون من «العطش» الذي اذاقهم اياه طربوش العتيد .

* * * *

وارتوى النّاس في ذلك اليوم . . .

ملأوا الصّفائح والقلل و «الأزيار» وعرفت الاجساد لاول مرة طعم الاستحمام بالماء الحلو . . الذي كان لا يستعمل الّا لارواء العطش فحسب ، وهبط ثمن الصفيحة الى ما دون العشر سنتات .

راح بعضنا يضرب اخماساً في اسداس حول عدم مجيء طربوش فمن قائل أنه لن يحضر بعد اليوم وغير أنه ما أن اهلّ اليوم التالي حتىّ حضر «طربوش» الى المنطقة مبكّراً . . .

انه ـ على ما يبدو ـ لم يسمع بالخبر . . فما ان دخل أول حارة حتىّ انهالت عليه حجارة الصّبيان الأشقياء .

ـ «يا أواليد . . عيب»

ـ «أم م م م . . من رجم يا عيال الـ . . »

ولكّن الحجارة . . اتّصلت ولم تنقطع . . وأصاب حجر رأس الجمل الذي جرى في خوف وهو يجرّ العربة التي نصب عليها البرميل . . في عنف .

وانفصل البرميل عن العربة . . .

وشرد الجمل . . وسقط طربوش على الارض واريق دمه . . ومع الدمّ

اريق الماء.. وخرج من المنطقة يتعثر ويصرخ ويسبّ ويهذي.

واشرقت الشّمس على المنطقة وعّمال البلديّة يواصلون عملهم..

آه . . يا عيني

يوم الخامس عشر من مايو ١٩٦٣ يوم لا ينسى في حياتي . .

انّه اليوم الذّي ازور فيه بلدا أجنبيّا لأول مرّة في حياتي ، ذلك هو بريطانيا.

وكنّا وفدا صحفيّا من عدن مكوّنا من اربعة من رؤساء تحرير الصّحف قدمنا الى « لندن » بدعوة من الحكومة البريطانية كضيوف ، فقد اعتادت الحكومة البريطانية ان تدعو في مثل هذا الشّهر من كلّ عام لفيفا من رجال الصّحافة من مختلف بلاد الشّرق لزيارة المعالم البريطانية وتسجيل انطباعاتهم عنها في أمتع وأجمل شهور السّنة (مايو ويونيو)، فالشّمس المحتجمة المتوارية طوال العام تقريبا تسفر عن وجهها في مثل هذه الايّام وتبدو مشرقة تشيع الدّفء والبهجة، والأمطار خفيفة كأنها رذاذ دموع متناثرة من مآقي السّماء في اويقات غير متّصلة، والبرد . . خفيف غير قارس وقد خلا من الصّقيع وما يسبّبه من لذعة وقشعريرة تصطكّ لها الأسنان والمفاصل معا وتجعل النّاس لا ينفصلون الاّ بصعوبة شديدة عن اجهزة التدفئة والتسخين، والجميع . . لا يتورّعون من الخروج في مثل هذه الأيام الحسناء

بالقمصان ، بلا معاطف ثقيلة مغطّاة بواقيات المطر وهم يتدفّئون بشمس الصّيف ويبتسمون للمروج الخضراء الزّاهية المفروشة بأشعة الشّمس الذّهبية في مواكب عرس لاتنقطع ، يحتفون بعروسهم الكبرى. . . الشّمس ، وآيات الحبور تتجلّ في وجوههم وعلى شفاههم وتنطق بها ألسنتهم التي ما اعتادت سوى الصّمت والاطباق ، فاذا هم يكلّمون بعضهم بعضا ويتحدثون الى من يعرفون ومن لا يعرفون ، ، فلا تسمع الاّ الكلمة المتداولة« ياله من يوم بهيج » تتماوج في الأسماع كأنها اغرودة عذبة تطرب لها قلوب الجميع في وقت واحد، ويتبادلها الجميع في وقت واحد تحيّات عطرة، وقبلات ، وباقات تهان ، وأمان عذاب رقاق.

شيء أشبه بـ « الموسيقى »، ولكنّها موسيقى يحسّونها ولا يسمعونها، وترقص لها مهجهم وجوانحهم دون ان ترسل نغمة واحدة، فعزفها هنا، في داخل القلوب وتتّخذ من اوتارها مزاهر شدو و أهازيج.

كنت، وانا الشّرقي ـ ربيب الشّمس ـ أعجب ان يفعل ضوء الشّمس فعله في القوم، فنحن على النّقيض منهم ، نودّ لو أنهم يصدّرون الينا شيئا من غيومهم وضبابهم ليحجب عنّا حرارة الشّمس المحرقة التي تأكل وجوهنا وتشوي منّا الاجسام شيّاً، فالشّمس لا تطلّ عليهم الاّ بدافىء الشّعاع بينما تكّشر عن « اشعّتها » في وجوهنا وجسومنا فلا تضرم فيها سوى النّيران.

والواقع . . انّ زيارتي لبريطانيا لم تكن هي الأمنية الوحيدة التي

كانت تراودني ، فثمّة أمنيّة أعزّ وأغلى تلك هي ان أعالج عيني اليسرى التي أعيت نطس الأطباء في عدن وهل هناك ما هو أعزّ وأغلى من نعمة الابصار الكامل؟ .

انّ زيارتي لبريطانيا جاءتني هكذا ، ببلا [illegible] على نفقة الحكومة البريطانية أنزل مع رفاقي في أبهى وأ[illegible] سنتيما واحدا ، فكلّ نفقاتي على الدّولة ، أتنقّل في ربوع [illegible] متاحفها ومسارحها وملاهيها ، وحدائقها ، وآثارها ، ومصانعها وبرلمانها، وأقابل أعظم وأجلّ الشّخصيات المعاصرة فيها ، كلّ ذلك . . . مجانا، وبلا أي مقابل . حتىّ سجايري التي حملت منها كميّة محدودة نزولا عند التعليمات الجمركيّة لم أعاني من نفاذها فقد زرنا عددا من مصانع السّجاير ضمن برنامج زيارتنا وخرجنا منها بهدايا فاخرة هي عبارة عن مجموعة من علب السّجاير التي تنتجها هذه المصانع ولم يكن عسيرا عليّ ان أستبدل بعضها بالنّوع الذي أفضّله .

غير ان كلّ ذلك كان يتضاءل امام المشكلة الكبرى . . امام الغمامة التي تطفو على سطح عيني اليسرى فتحوّل المرئيات فيها الى صور مهزوزة يغشاها الضّباب تدثّرها العتمة .

شيء أفسد عليّ الكثير من مباهج الرّحلة وما يحتمل ان اتمتّع به في مقتبل ايّام الزيارة الذّهبية النفيسة .

قلت لنفسي :

«من سخرية الأمور أنني «متهم» ببعد النّظر ، فاذا كان الأمر كما يقولون فان هذا من انسب الأوقات لاستعمال «بعد النّظر» في معالجة «قصر النّظر»

وسرعان ما وجدت نفسي . . أفكر.

و. . بسرعة، أخرجت ماكان يعتمل في خاطري الى حيز«المكاشفة» ، وشرحت للمسئولين عن الرحلة في ادارة لاستعلامات المركزية مشكلتي.

قلت لهم بأنني ما دمت في «لندن»فمن المستحسن ان ادخل مستشفى للعيون، وان يعالجني طبيب اخصائي، ذلك لأن المفروض ان اتفرّج على لندن بعينين سليمتين فأنه اذا كانت حالتي ابصاري ضعيفة فانّ معنى هذا انّ «اهل لندن» هم الذين«سيتفرّجون» عليّ.

وقلت لهم بصراحة ـ حسدت نفسي عليها كثيرا فيما بعد ـ بأنني خالي الوفاض بادي الأنقاض، لا احمل سنتيمًا واحدا ابتداء من اجرة الطّبيب وانتهاء بأجرة «عدّاد» التاكسي الذي سيحملني الى المستشفى.

قلت ذلك، ونظرت في وجوههم وفي وجوه زملائي الصّحفيين ، فوجدت الزّملاء«يسبحون» من الكسوف في بحر من العرق رغم انّ طقس «لندن» كان باردا.

ولكنّ المسئولين عن الرّحلة استمعوا اليّ ، وبدأوا يفكّرون في حلّ جدّي لـ. . . مشكلتي.

كانوا جميعا ـ وعلى رأسهم مندوبة ادارة الاستعلامات المركزيّة «مسز ميموري» اللطيفة المعشر الكبيرة القلب وسرعان ما جاءني ردّهم في اليوم التالي.

لقد صمّموا على ان اعالج ، فما دمت في بلادهم فمن العار والشّنار ان اعود الى عدن بغير علاج حاملا نفس العين غير السّليمة على وجهي .

لا . . بل انهّم قرّروا ان ادخل مستشفى «نورفيلد» للعيون دخول الفاتحين، لا في القسم المجّاني ولكن في القسم «الخصوصي» ذي النفقات الثّقيلة (عشر جنيهات يوميّا غير اجرة العمليّات الجراحية) وان ابقى في المستشفى شهرا حتىّ يستكمل العلاج، وان اواصل «الرّحلة» مجدّدا باعتبار ان الايّام التي امضيها في المستشفى لا تدخل في حساب ايّام الرّحلة، وقالوا لي انّ «الحساب » لن يكون معي وانما سيكون مع حكومة عدن خلال التعامل الجاري بينهما مادمت مواطنا وموّظفا حكوميا .

❊ ❊ ❊

في المستشفى ، وجدت عالما آخر. . . انّه عالم اولئك الذّين لا يبصرون كثيرا . ورغم انّ حالات بعضهم تكاد تكون مَيؤ ساً منها الاّ ان آمالهم كانت أكبر وأقوى من اليأس . بعضهم اثرياء من اصحاب الملايين يعيشون ببصيص ضئيل من الابصار ويكفي ان تلامس انامل الطّبيب جفونهم فيجفّ من العيون دمعها الهتون الذي يسفك حزنا على وداع البصر .

ليس عالما مريحا . . عالم الظّلام .

الذين يعيشون فيه بعد ان رأوا النّور يحسّون تماما انهّم غائبون . . كلّ ماحولهم . . أصوات . . . شفاه تنطق . . وأيد تتحسّس . .

وتلامس ، ورؤى من الدّاخل تتخيّل الاشياء بألوانها وأضوائها في الظّلال.

خفقات القلوب التي تدقّ ، ليست ابدا كومضات العيون التي ترمش.

حتىّ الوجوه التي تتلفّت وتنظر الى. . . لاشيء ، تلقى بنظراتها في الظّلمة وليس من حولها سوى الفراغ والعتمة وتترامى الى مسامعها الألفاظ . . بلا عيون، مجرّد مشاهد مرسومة بالكلمات قد تكون مليئة بعبارات الاشفاق والرّثاء وشيئا كثيرا من الحنان والتعاطف ، ولكّن ذلك كلّه لا يعرّض العين الداكنة التي اظلمت فيها الرّؤ ية ومات الضّياء.

تجربة قاسية، مريرة ، عشتها. . لعلّ اقساها ذلك الخطاب «اللّاواعي» الذّي وجهه إلّي رجل مسّن من «اهل لندن» يموت النّور في عينيه شيئا فشيئا وتزيد سحنة الوجود من حوله حين قال لي:

- جئت اذن لتصفحها . . عينك الأخرى الضّريرة، حسنا يا بنيّ ، أما كانت تكفيك عينا واحدة؟

انتابني رعدة خفيفة، ودخلت الفاظه في سمعي كأنها شظايا ، فتجلّدت.

وعندما زالت آثار «القشعريرة» التي هزّتني وهو يوجّه الّي سؤ اله بلا وعي تقريبا ودون ان ينتظر في حقيقة الأمر جوابا، عندها فقط . . تأملت كلماته. . .

من وجهة نظره، هو . . . على حقّ ، لأنه لا يملك حتىّ هذه الواحدة.

حتىّ ذبالة الأمل الضّعيفة التي كانت تضيء زاوية صغيرة من نفسه هبّت عليها ريح القنوط عندما افهمه الطّبيب ـ في صراحة ـ بأن علاجه قد يستغرق امدا طويلا قبل ان تعرف النتيجة الواضحة.

وسرعان ما حلّ الرثاء له في قلبي مكان الغرابة والاستنكار، فتعمّدت ان انتزع من شدقيّ ضحكة ـ وان جاء ضحكي متأخرا ـ كي اوهمه بأنني لم أتألم لكلماته، وانّ ما قاله لي لا يعدو ان يكون مجرّد . . . نكتة.

❊ ❊ ❊

أجريت لي عمليّتين جراحيّتين في العين اليسرى. . .

وبشفتيه . . نقلني الطّبيب من عالم القنوط الى عالم الفرحة بالنجاح. . . نجاح الجراحة.

وفي الوقت المعلوم جاءني الدّكتور «لي» ليفكّ الضّمادات عن عيني.

وتحرّرت عيناي من «القضبان القطنية» ولكنّني ابدا لم افتحهما. . فقد شعرت بنوع من الخوف على العين الجريحة، وادرك الطّبيب حقيقة مشاعري فهتف بي في جذل:

ـ افتح عينك اليسرى . . ولا تخف.

قال ذلك وقادني الى الشّرفة.

كان القمر مكتملا عندما فتحت عيني اليسرى عليه فشعرت بدفقة من ضيائه تملأ جراحها كأنها جرعة من الماء ترشّ بغتة نوق وجهي .

وخفق قلبي بشدّة . . . وفي جرأة ، رحت احدّق الى القمر مركّزا التحديق بالعين الجريحة مغترفا بها من ضوئه في سخاء واسراف كأنما اريدها ان تشرب كئوسا من شعاع القمر.

وفرحت . . فرحت من كلّ قلبي .

تلك السّحابة المتجمّدة ، غير الممطرة . . زالت تماما عن عيني ، وها هي الآن قد تركت مكانها صفاء بلّوريا تمتدّ من خلاله معالم الأشياء من حولي بهاء وضياء .

وبلا وعي تقريبا، احتضنت الدّكتور«لي» ورحت أشبع وجناته المتغضّنة لثمات شرقيّة . . من القلب .

وقصصت عليه قصّة ليلة من ليالي القمر ، ليلة ليست كهذه ، مقمرة ، فقد كان القمر فيها لا يزال طفلا رضيعا، وهلالا حديث الولادة .

كنت مع اطفالي اشاركهم اللعب في ليلة من ليالي رمضان على سطوح بيتنا . . . واذا الأولاد ينظرون الى السّماء متنافسين في رؤية الهلال وقال لي اصغرهم وهو يشير الى السّماء :

ـ انظر يابابا . . انّه هناك . . . القمر . . . فوق قمّة هذا الجبل . .

ووضعت كفّي مظلّة على جبيني في محاولة لرؤية هذا الذي اشا اليه .

وأردف الطّفل:

ـ انظر هنا. . هنا يا ابت، هل ترى الجبل الذي امامك؟ أنه فوق قمّة الجبل.

قلت ـ ولا يزال كفّي كالمظلّة الواقية فوق جبيني:

ـ فوق قمّة الجبل الذي امامي؟ حسنا . . اين هو الجبل أولا؟ .

لن أنتقم

قلت لأمي ربّما لأول مرّة في اصرار:

ـ مستحيل

قلتها في هدوء وكنت احسّ انّ حروف الكلمات تخرج من شفتيّ كما يتصاعد البخار من ماء مغليّ.

حروف غريبة لم تسمعها منيّ قطّ، رغم ذلك البريق الذي يلمع من خلال عينيها الصّارمتين، تسلّطه على وجهي فاذا بي احسّ به يقطع دابر ارادتي وينسفها كلّما هممت ان أعترض عليها في أمر من الأمور.

انهّا جبّارة، هذه الأم، فقد كان أبي نفسه يخشاها ويرهبها ولعلّني ورثت عنه ذلك الجفول الذي يهزّ بنيانه كلّما تحدثّت اليه في صرامة بكلمات قليلة مقتضبة كأنها برقيّات.. ورغم ذلك فقد كان أبي يحبّها ويتعلّق بها تعلّقاً شديداً، وكنت أسائل نفسي ـ بعد ان كبرت واشتدّ عودي ـ «ترى.. متى كان يظهر في أمي جانب الأنثى الرّقيق لأبي؟»، غير أنّني كنت احار ولا أجد جواباً، وبعكس أمي، كان أبي ـ يرحمه الله ـ طلقاً، مرحاً، سموح النّفس، متفتّحاً، يضحك اذا عنّ له الضّحك حتىّ يكاد يغشى، بينما تنظر اليه أمي وعلى شفتيها ظلّ

ابتسامة ـ وهذا أقصى ما تسمح به في حضوري ـ وسرعان ما تستبد لها بتقضيبة صارمة.

لقد عوّدتني على الطّاعة، والطّاعة العمياء التي ليس في قاموسها كلمة «لا».

وأني لأذكر ذلك الحادث المشئوم الذي غيرّ مجرى حياتي في بلدتنا (ميفعة) حين جيء بأبي محمولاً على أعناق الرّجال وأكتافهم، وما لبث أن نظر إلى أمي وقال عبارة واحدة، فقط، عبارة لفظ بعدها أنفاسه وانتقل الى الرّفيق الأعلى..

ـ «أوصيك يا سالمة.. لا تتركي دمي يذهب هدراً».

وجمدت ملامح أمّي وتحوّلت أمام الجثّة إلى تمثال.

لم تصرخ، لم تصوّت، لم تفعل ما تفعله سائر النّساء، بل كانت تنظر إلى الجثّة المسجاة بعينين مليئتين بنظرات الرّعب والهلع، وعندما وأساها الرّجال بكلمات قليلة مقتضبة لم تعر اقوالهم كبير أهتمام.. بل أجابت بإقتضاب وهي ترفع سبّابتها إلى السّماء:

ـ كلّ شيء جرى بأمره، وكلّ شيء سيجري بعد ذلك بأمره.

كان القتل على مايبدو خطأ غير متعمّد، وان كانت هناك خصومة عابرة بسبب المواشي، فقد دأبت معزة من ماشية أبي ترعى في حقل (همّام) وهشّها مرّتين او ثلاث مرّات وشكاها إلى أبي فوعده خيرا، ورغم رقّة أبي فأن (همّام) كان بذيئاً سبق لسانه البذيء عقله، وشتم العنزة، وربما قال رذاذا من الكلمات في صاحبها، إلا أن أبي لم يعر الأمر كبير أهتمام، فاكتفى بأن قال له في تحذير:

ـ (شـف.. هـا.. لا تغلط).

كان أبي قد صمّم على أن يولم لبعض معارفه القادمين من (عدن) وليمة تكون العنزة المؤذية لجاره ضحيّتها، ولكن المدعوّين أعتذروا عن الحضور في ذلك اليوم فتأجل ذبح العنزة إلى يوم آخر حدّدوه، وهكذا لم يرق دم العنزة وانمّا الذي أريق كان.. دم أبي.

لقد ربط العنزة، ولكّن الرّباط لم يكن محكمًا، فتحرّرت منه وهرعت إلى حقل (همّام) فكان القضاء الذي لا مردّ له، فبينما هرول أبي جرياً وراء العنزة الشّاردة أنطلقت رصاصة الغيظ والحنق فأصابت في أبي مقتلاً بدل أن تصيب العنزة.

تلك هي الواقعة على حقيقتها، ولعلّ الألسن أضافت إليها الكثير ووشّت تفاصيلها ونمقّتها، ربما بدافع من الكره الذي يشعره أهل بلدتي (ميفعه) تجاه (همّام) المعروف بفضاضته وغلظه قلبه، فطغت المأساة على كلّ ما عداها من الاعتبارات.

كان دم أبي المهدر معلّقا في عنقي عبر تلك السّنين، امّا أن اسافر إلى (الخليج) حيث سافر (همّام) فأقتّص منه، وأجيء لأمي بخبره، وامّا فانّ لعنة التعيير ستلاحقني حيثما كنت.

وعندما ارسلت زوجة (همّام) بابنها (هيثم) وابنتها (سلمى) إلى عدن لطلب العلم، عمدت أمّي إلى أرسالي أنا الآخر إلى المدينة.. إلى عدن لطلب العلم، فقط، من أجل أن لا يقال بأن حظّ أبناء القاتل خير من حظّ أبن القتيل الذي لا يعرف كيف «يستخرج» المكتوب.

وهكذا، سافرت إلى عدن، وكنت أزور بلدتنا في الاجازات،

وحينما تطأ قدماي أرض مزرعتنا أنسى نفسي فأركض بين الحقول وتحتضن نظراتي التراب بشوق ولهفة وأكاد أركض لألعب مع (هيثم) و (سلمى) فتشدّني نظرات أمي إلى الخلف، فأرجع القهقرى وأنا لا أدري، لماذا ألعب معهما هناك في عدن ولا أكلّمهما هنا في (ميفعة).

كانت نظرات أمي وذلك البريق المخيف الذي ينبعث من عينيها يجعلاني أتقهقر، فلا أجسر على مناقشتها، ولا على سؤالها، لماذا أعادي (هيثم) و (سلمى) وهما بريئان من دم أبي.

* * *

وفي إحدى اجازاتي المدرسيّة سمعت ولولة وصرخات في بيت (همّام)، فلما تبيّنت الخبر، عرفت أنّ (همّام)، القاتل الذي تحقد عليه أمي قد مات في مهجره بالخليج، وأنّ الشّركة التي يعمل معها قد نعت إلى أهله مصرعه في حادث أصطدام سيّارتين، ولكنّني عندما هرعت إلى أمي لأزف إليها الخبر راعني أن وجها كان جامداً لم يهتّز للنّبأ، فما لبثت أن قالت لي بصوت ملأ جفافه سمعي:

ـ أجل.. مات، لكن أبنه (هيثم) لم يمت بعد، فهل تريد أن يذهب دم أبيك هدراً؟

قلت بلا وعي تقريباً:

ـ «عيب يا أماه، دم أبي لن يذهب هدراً».

أنبسطت أساريرها وقالت لي «تعجبني».

وتقدّم بي العمر، وكانت الدّراسة حلبة تسابق بين أبني القاتل وابن القتيل، فاجتزنا المرحلة الثّانوية وأصبحت انظر إلى مسألة التحاقي

ببعثة علمية غاية المنى، فقد أمتدّت أمامي دائرة طموحي الشّخصي، فكنت أحلم أن أصبح مهندساً زراعياً أملأ تربتي بالخصب والحياة، وأكون مصدراً من مصادر الثّروة العقليّة في بلادي، هذه الثّروة التي لا تكتفي بأن تكون ارواء للنّفس، واثراء للمجد الشّخصي، بل تطمح أن تكون فيضاً من الخير على كلّ ما حولها، رغدا ورفاهيةّ وهناء، وعطاء لا يتوقّف، ولكنّ أمي لم تشأ ذلك، وذكّرتني بأنني لا يمكن أبرم أمراً قبل أن أنفّذ رسالتي في الحياة، الرّسالة التي علّمتنيها.. رسالة القتل.

قالت لي أنّ عينيها على وشك الانطفاء، فهي لم تعد قادرة على الرّؤ ية، وأقسمت لي بأنها لو كانت قادرة على رؤ ية ولو بصيص من محيّا «هيثم» أبن «همّام» اذن.. لأخمدت أنفاسه بنفسها. ولأول مرّة. قلتها لأمي في تصميم واصرار:

- «مستحيل، مستحيل أن أقوم بهذا العمل»

أظلمت عيناها، أجل.. غير أنّ ذلك البريق لم يزل طاغياً، أنّه لم ينطفيء ولكنّ الّذي انطفأ حقّاً هو تخوّفي منه، فقد ارتفعت آمالي وأحاسيسي عن مستوى آمالها وأحاسيسها، وانفصلت عنها كما تنفصل «الكبسولة » عن جسم الصّاروخ.

وحاولت كثيراً أن أجعلها تفهمني، بدلاً من أن تتّهمني بالجبن... حاولت كثيراً أن أجعلها تقترب من آمالي، من أفكاري، من تشوّقاتي وتطلّعاتي وأحلامي، ولكنّني فشلت..

كانت الرّغبة في الأخذ بالثّأر تطغى على كلّ العوامل والاعتبارات في نفسها... فقالت لي:

ـ أسمع يا بنيّ، لقد نذرتك لهذا اليوم يا فلذة كبدي، وقد سمحت لك بالذهاب الى عدن لتتعلّم، لا لكي تصبح جباناً عاجزاً عن الأخذ بثأر أبيك. . . كان غرضي أن تصبح أفضل من أولاد همّام.

ـ ولكنّك عندما تريدينني أن أرتكب جريمة قتل فسأصبح دون ولد همّام وأبنته، سوف أصبح ملقى في السّجن، امّا أبن (همّام) الذي تريدين منيّ أن أقتله فسيصبح مصيره محصوراً في أحد أمرين أثنين، أمّا أن ينجو من بين براثني، وفي هذه الحالة سوف يسافر ليتمّ تعليمه في الخارج، وامّا أن يموت، ليصبح شهيداً، وفي الحالتين سيصبح خيراً منيّ، خيراً منيّ لو مات، وخيراً منيّ لو دخل الجامعة.

ـ ومكانتك. . وشرف القبيلة؟

ـ لا يا أمي، مكاني ليس هنا، وشرف القبيلة في أن أتمّ دراستي لا أن أضرّج يدي بالدّماء. وسكتت أمي. . وأطمعني سكوتها في التوسّع في شرح آمالي، لعلّها تفهم، ولعلّها تعفيني من هذه المهمّة الانتحارية، فقلت لها:

ـ أمّاه، ارجوك، أفهميني. . اقتربي قليلاً من هذا الذي أحلم به، أنظري إلى هذه الأرض الواسعة عندما أرجع مهندساً سأحيل هذه التربة القاحلة الجرداء إلى أخضرار، سأحفر الآبار، سوف أجعل أبناء قبيلتي يخفضون هذه الأيدي إلى الأرض وينبشون بها التراب ويستخرجون المياه من جوف الأرض بدلاً من أنتظارها من السّماء، وسيزداد المحصول وسنسوقه لا في الأسواق المحليّة فحسب، بل وفي

الأسواق الخارجيّة، ونجنى الأرباح، ونبني بلدتنا، نبني فيها المستشفى والمدرسة والبيوت النموذجية والطّرقات. . أجل يا أمي، أنّ المدارس التي يرسل الأهالي إليها أبناءهم، وقد لا يستطيعون كما استطعت أنت، هذه المدارس يجب أن تنتقل الى القرية بدلاً من أن ينتقل إليها أبناء القرية.

قالت لي في سخرية:

ـ وهل أنت الذي ستصنع كلّ ذلك، انك اذن لعلى كل شيء قدير.

قلت في حزن واشفاق:

كلاّ، لست وحدي، ولكنّنا جميعاً يجب أن نصنع ذلك، غير أنّنا لا يمكن أن نصنعه ونحن مثقلون بالافكار المضرّجة بالدّماء، فالذين يحملون في أيديهم فئوساً يشقّون بها بعضهم لا يمكن أن يجدوا وقتاً يفكّرون فيه بشقّ بطن الأرض.

ولكنّ أمي لم تقتنع، كانت قد وطنّت نفسها على الثّأر، فلم تستطع أن تتزحزح قيد أنملة عن فكرة الأخذ بالثّأر، فأحسست بها تكرهني، تلعنني، وتطردني من لدنها شرّ طردة. .

قلت لها وانا اهمّ بالخروج:

ـ يجب أن تعرفي شيئاً واحداً، أن (همّام) ليس هو قاتل أبي. . الحقيقي.

قالت بنفس السّخرية:

ـ أكتشاف عظيم، ومن الذّي قتله حقيقة. . ؟

قلت غير مبال بسخريتها:

ـ القاتل الحقيقي في مأساة أبي هو. . الفقر. . . لقد خاف (همّام) على زرعه القليل من معزة أبي، فحمل اداة القتل، لا ليقتل أبي بل ليقتل المعزة. . وانطلقت الرّصاصة في أبي ومات، ومات معه (همّام) أكثر مرّة. . مات خوفاً من امتداد يد الحكومة اليه فتخفّي، وفرّ من وجه العدالة الى (الخليج)، واخيراً دهمته سيّارة. . . وانتهى. ومن أجل ذلك فأنا أريد أن أتمّ دراستي في الخارج لأحمل السّلاح الذي أقتل به القاتل الحقيقي لأبي،. . الفقر. . . سلاح العلم والمعرفة، وسأعود لأزرع الأرض النموذجية وأحفر الآبار الارتوازيّة وأشقّ بهذا السّلاح قلب القاتل الأصلي.

قلت لها ذلك وهي تشيّعني بلعناتها، حينما خرجت، ولم أكن لأقلق عليها فقد كان لديها عاملان يزرعان الأرض التي ورثناها عن أبي فلم أكن أخشى عليها الاملاق.

ورجعت إلى عدن، بعد أختصامي مع أمي في القرية، ففوجئت بخطاب من ادارة البعثات توافق على ايفادي الى المملكة المتّحدة لدراسة زراعة المناطق الحارة، ففرحت، ورحت ألملم حاجاتي بسرعة استعدادا للسّفر.

وتوقّفت عند «كرّاسة» صغيرة عثرت عليها مصادفة بين امتعتي، لا أدري كيف وجدتها رغم مضي تسع سنوات عليها، وقلّبت غلاف الكراسة فوجدت عليه اسمي كتبته بخطّ يدي والى جانب الأسم هذه الكلمات: (موضوع الدّفتر: مادة التاريخ).

وتوقّفت عيناي عند إحدى الصّفحات، وكان الأستاذ قد أشّر عليها بالقلم الأحمر (ممتاز جدّاً).

وكنت قد اعتدت ان أكتب السّؤال في الاختبارات الشهرية في المدرسة وأكتب إلى جواره الجواب عليه، وكان موضوع (الاختبار في التاريخ) هو (حرب البسوس) بين بكر وتغلب.

س ـ لماذا قامت الحرب بين «بكر» و «تغلب»؟

ج ـ من أجل ناقه.

س ـ كم استمرّت الحرب بينهما؟

ج ـ أربعين سنة.

نفس ما حدث بين القبيلتين العرّبيّتين المعروفتين في التاريخ الجاهلّي كان يمكن أن يحدث بيننا.. بين قبيلتنا وقبيلة (همّام)، بنفس التفاصيل، بنفس الوقائع، والفرق الوحيد هو أنّ (العنزة) كانت هي البديل عن (الناقة) في حرب (البسوس).

وبعدها بأيام وجدتني مع (هيثم) أبن قاتل أبي في طائرة واحدة، هو قد امضى فترة في الجيش كان ضابطاً فيه وينوي الالتحاق ببعثة عسكريّة، وأنا، قد امضيت سنة في وزارة الزّراعة وفي نيّتي أن أصبح مهندساً زراعياً... في صدرينا أكثر من أمل.. وفي قلبينا معاً أكثر من حبّ فردي للحياة، فقد كنّا نتحدّث عن آمالنا العريضة بعد التخرّج، نظرتنا الى الحياة مشتركة، وأهدافنا.. مشتركة، بل، لقد كان هناك ما يشبه الاتفاق غير المبرم بيني وبينه حول (سلمى).. اخته، فهو يعلم أنني أريدها، ويعلم أنها تميل إلّي ويعرف أن كلاماً صريحاً مفتوحاً لم يجر مراعاة لخاطر أمي التي رفضت ان تقابلني ثلاث مرّات بعد ذلك الحوار السّاخن بيننا. وزاد من اصرارها على مقاطعتي أنني تزوجت سلمى بنت قاتل أبي.

غير أنّ قطيعة أمي لم تستمرّ طويلاً، فساعة الموت جعلت نار قطيعتها تبرد ويذهب عنها ذلك التأجج المتّقد في قلبها على من كانت تسمّيهم (قتلة أبي) وكانت تصرّ على أنني خائن أنضممت إلى القتلة.

أجل.. فعندما حضرتها الوفاة طلبت هي بنفسها رؤيتي، فذهبت اليها وحدي تاركاً (سلمى) وطفلي منها قريباً من عتبة الدّار في القرية، ولكنّها طلبت زوجتي، وعندما قبّلت (سلمى) يدها أمسكت أمي بأناملها في حنوّ، وتضرّعت اليها أن ترى (همّام) الصّغير، وراحت تتشمّمه على طريقة أهل (ميفعه) في التقبيل، ثم تتحسّسه وتضمّه داعية لنا جميعاً بالتوفيق... واهبة لنا كلّ عطفها وحنانها وغفرانها.

وانطفأ ذلك البريق من عينيها، ذلك البريق الذي طالما أخافني وهزم ارادتي، وكاد يوردني مورد التهلكة.. ويجعلني امتدادا للأفق الجاهلي واستمرارا لحرب (بسوس) أخرى... وازهق روح (هيثم) لتمتد الرّوح الجاهلية الينا كعرب فنزّح بقوانا في حرب داخلية وثأرات ومنازعات قبليّة تجعل وجودنا استمرارا للتخلّف واضعافاً للقدرة العربية على الصمود في وجه العدوان الاسرائيلي.. بتكنولوجيته وعلمه وتفوّقه الصّناعي والزّراعي والعسكري على تخلّفنا.

حقّاً.. لقد أصبح بيننا وبين (أهل همّام) كلّ سنة... مولودا.
وكان يمكن ان يصبح بيننا وبينهم كلّ سنة.... قتيلاً.

مهجة

لم تكن «مهجة» المرضة في عنبر العيون في مستشفى الملكة، لم تكن تظن انها سوف تقع في حب هشام المريض الذي فقد نور عينيه اثر اطلاق الرصاص عليه خطأ من بندقية صيد في إحدى نزهاته مع بعض الصحاب في الربع الخالي بغية اصطياد الوعول.

كانت «مهجة» تسمع كثيراً عن قصص المرضى الذين يحبون ممرضاتهن اذ كثيراً ما يدخل المريض المستشفى عليلاً ويخرج منه عريساً ولكنها كانت تضحك من تلك الحكايات فهي بالرغم من انها صاعقة الجمال لا تكاد العين ترتوي وهي تشرب من ملامحها إلا انها كانت ذات شخصية مهيبة موفورة الاحترام، ومن أجل ذلك كانت الممرضة المثالية في نظر رؤسائها، مثال الاستقامة والجد والمثابرة في اداء الواجب والاحساس الكلي بمهمة التمريض كل ذلك بروح عالية وشعور إنساني متسام الأمر الذي رشحها لتكون كبيرة الممرضات في عنبر العيون.

كان «هشام» شاباً يعمل مدرساً في كلية عدن، والده من الأعيان. . . تزوج فتاة أبوها ثري ايضاً فلما وقع له ذلك الحادث المشؤم أحس بزوجته تتغير. . . ويتحول شعورها عنه، فاظلمت نفسه كما اظلمت الدنيا في عينيه عندما فقد نورهما وأحس بعذاب

نفسي لا مثيل له ومرارة يتجرّعها كلما اصبح عليه يوم جديد عيناه لا تصافحان شروق الشمس ولا تحسان بغروبها فكانت حالته حقاً جديرة بالاشفاق والرثاء من ممرضة رحيمة مثالية كـ «مهجة».

كانت «مهجة» تقضي معه في غرفته وقتاً طويلاً تستمع اليه وتحدثه، وستحوذ على إعجابها بافكاره وفلسفته في الحياة، و بساطته وكان صوته العذب يتسلل إلى أعماقها كما يتسلل شعاع الفجر خلسة من خصاصات النوافذ، وكانت روحه رغم الحزن الذي يمزق نياط قلبه ويهد كيانه تبدو لها ذات جلد واحتمال للمكارة واستعداد لمقابلة الحياة في تحدٍ وإيمان... يدلان على أصالة معدنه ونقاء أرومته وعمق ثقافته وقوة شخصيته... وهي سجايا يندر أن تتوفر في امثاله من أبناء السراة.

وأحست أنها تنجذب نحوه يوماً عن يوم، وعللت هذا الشعور في مبدأ الأمر على انه مجرد اشفاق وتعاطف مع مريض غير عادي... مريض رزىء بعينيه وبقلبه، وتنكرت له أقرب الناس إليه، فذهبت عنه كما ذهب البصر... ولكنها وجدت نفسها تفكر فيه حين تخلو إلى نفسها وتحس به أحساساً يتغلغل في صميم أعماقها، فإذا بها تتبدل وتتغير نظرتها إلى كثير من حقائق الحياة يغشاها شعور بالتسامي العقلي مع تواضع جم وشعور مرهف أضيفيا على جمالها الباهر جمالاً آخر لا تراه العين بل يحسه الشعور وتنجذب إليه الروح.

وكان لمهجة ابن خال ظل يتردد عليهم كثيراً وهو يحاول ان يظفر من ابنة عمته بشيء من الاعجاب، ويتقرب الى ذويها متزلفاً علهم ان يوافقوا على تزويجه بها.

وكانت لـ «مهجة» حتى قبل أن تعرف هشام ـ تشعر في أعماقها

بنفور من ابن الخال هذا، رغم أنه شاب مرموق يتنبأون له بمستقبل باهر في الشركة التي يعمل بها. . . فلما عرفت «هشام» إتسعت عيوب ابن خالها في نظرها ووجدت فيه شاباً تافهاً سطحي التفكير ساذجاً. . . لا ينظر اليها إلا كتحفة جميلة من التحف يجب ان يقتنيها، وكانت أنباء مغامراته تزكم الانوف وتزيدها شعوراً بالنفور منه والتطير كلما داهمهم بإحدى زياراته.

وذات يوم قالت لها أمها: «ماذا بك يا إبنتي. . . إنك على الرغم من دماثتك تكادين ان تفقدي كياستك التي تتحلين بها عندما يزورنا ابن خالك «حسن» والحق ان «حسن» يحبك ويتمناك من أعماق قلبه وانه ليوم هو يوم المنى والهناء حينما يتقدم لخطبتك».

غير أنها كانت تحاور وتداور وتراوغ أمها وتعلل تجهمها بانه تعب العمل، وارهاق المرضى فكانت امها تقول لها «كم كنت أتمنى لو يتحقق أملي وتزفين إلى «حسن» وتتخلصين من هذه المهنة. . . المقرفة بين المرضى والدماء والآهات والتوجعات».

وبقيت أيام معدودات على مغادرة «هشام» للمستشفى. وعندما جاءت «مهجة» لتعطيه الحقنة أخبرها بذلك ـ ولم تكن بحاجة لأن يخبرها فقد كانت تعلم وأخبرها أيضاً بأنه تلقى خطاباً من الكلية تنبئه ادارتها بانها قررت استئناف عمله بها كمدرس بالرغم من فقده لنور عينية. . . وهنأته من أعماقه بحرارة ثم ران بينهما صمت، كانت خفقات القلوب فيه هي وحدها التي تتكلم.

وأمسك «هشام» بيدها في رقة وحنو. . . لأول مرة وأحست لملمس يده أحساساً سرى في بدنها كله طراوة درت له عواطفها حناناً وحباً فتركت يدها في يده ورنت اليه في وله، وجاءها صوته. . . ذلك

الصوت الذي ينساب كالخدر في اذنيها وتعتصر نبراته كل ما في شخصيته من سجايا، قال لها:

ـ مهجة... لست أدري ماذا اقول لك؟ إنك الأمل الذي أحياني... والمنهل الذي رواني والرحمة التي امتدت يدها لمسح دموعي وتطيب جراحي... وتهبني من جديد عمراً واملاً وحباً للحياة، ولست اريد أن اسألك ما هو شعورك نحوي، إنني أعرفه... أعرف هذا الشعور كما أعرف دخيلتي فهل يرضى بي أهلك؟ وهل ترى لن تندمي يوماً ما على...

وقاطعته، وصوتها يتهدج وصدرها يرتفع وينخفض في انفعال:

ـ هشام... لن تستطيع اية قوة في الوجود ان تبعدني عنك... انك لي كل حياتي يكفي انني أحبك حتى يكون حبي هو النور الذي يملأ عينيك ولن اندم ما حييت على قرار اؤكد لك ـ ولست في حاجة إلى هذا التأكيد ـ انني اتخذته بملء اخياري وملء ارادتي ودرسته بكل وعيي.

قالت لها امها أن «حسن» سيجيء اليوم ليخطبها رسمياً... فما كان منها إلا أن قالت لأمها وفي صراحة متناهية: انني... ارفض...

وتجمعت الاسرة كلها حولها تسأل: ولماذا... وما الذي يعيب «حسن» في نظرك؟

ولكنها أجابت بأن «حسن» لا يعيبه شيء ولكنها لا تريد. وكاد الحوار ان يحتد ويتطور لولا أن «حسن» بعث يعتذر عن الحضور اليوم

لأمر هام يتعلق بعمله.

ووقف أخوها الاكبر إلى جوار قرارها محاولاً إقناع الأم بانها لا يمكن ان تفرض ما تريد على ابنتها وكان الأب مستسلمًا لا يدري ماذا يقول على انه وعد بأن يتكلم مع «حسن» حول تأجيل موضوع الخطبة إلى وقت آخر ريثما ينجلي الموقف على ما في إنبائه لـ «حسن» من مشقة.

ومضت أيام لم تطرق الأم الموصوع لـ «مهجة» وإن بدت وكانها تعاني من هم مقيم.

على ان «مهجة» كانت تزداد اصراراً على الرفض ويبدو هذا الاصرار من عينيها وكانت كلما قارنت في خيالها بين «حسن» و «هشام» تحس بمدى الهوة التي تفصل بينهما وكانت تناقش نفسها احياناً نقاشاً طويلاً. ولكن عنصر «الصراع» لم يحتدم في أعماقها ابداً فهي قد قررت... وهي قد صممت على أن تتزوج «هشاماً» مهما كانت العقبات التي تقف في طريقها.

وترامت الشائعات عن علاقة الحب التي تربط بين «هشام» و «مهجة» ووصل رشاش منه الى الأسرة، وجن جنون الأم... أصابها ما يشبه «الصرع» وتساءلت: «ما الذي جرى لابنتها؟ هل جنت؟ هل أصابها مس من خبال؟ وهل ذهب الله بعقلها حتى تتزوج اعمى وترفض ابن خالها؟ وماذا تقول لأخيها الذي تربطه بها وشائج الدم والقرابة والذي ملأت أفضاله بيتها وشملت زوجها واولادها... بل يعود اليه فضل اشتغال «مهجة» كممرضة بعد أن جاءت اليه يوماً تشكو رقة حال زوجها وقلة حيلتهما...

وانقسمت الاسرة... وقف الأب أخيراً في صف أبنته... وأحتدم بينه وبين زوجه خصام وصل الى حد التهديد بالطلاق. وأحست مهجة بمدى ما أحدثته في البيت من تصدع فانتابتها حيرة مضنية... ودب في داخلها نقاش نشب هذه المرة صراعاً بينها وبين عواطفها وعقلها. هل تضحي بـ «هشام»؟ ذلك اهون من أن تنتزع روحها من جسدها؟ هل تضحي بامها وقد رمى والدها يمين الطلاق إن هي وقفت في طريق سعادة أبنته؟ ذلك ما لا تطيق أن تتصوره.

ان «حسن» يعبد جمالها... وتكاد عيناه ان تفترسا محاسنها... ولكن ما أبعده عن قلبها وعواطفها... ما أبعده عن روحها وفكرها، واذا هي تزوجته فستظل تخونه خيانة الروح وهي أشد عذاباً من خيانة الجسد...

ودارت بها الدوامة... وكانت تفيق في معظم الليالي على ذلك الشجار الخفي بين والديها في غرفتهما فتتلظى عذاباً وتتمزق حيرة والماً. انها سبب هذا العذاب... هذا النقار الذي لم تعرفه حياتهما طوال عشرين سنة ولا بد ان تنتهي... وينتهي ذلك الصراع المحتدم في أعماقها، والصراع الآخر الذي ينشب في البيت بين والديها.

وصممت «مهجة» على الانتحار... خلاص، لقد آن لتلك الحيرة ان تزول بزوالها.

وتسللت الى «المطبخ» والعيون قد اغمضت...

أجل... سوف تشعل النار في جسدها ولتهدأ هذه النفوس التي نامت عيونها وتركتها للصراع.

وأمسكت بعلبة «الثقاب» وبدأت تشعل وابور الكاز. . . وتقربه من ثوبها. . .

وزاغت عيناها وهي تحس بالنار تأسرها وكأن النار هي الاخرى قد ستشاطها الغضب فأندلعت السنتها وراحت تشتعل في كل جسمها.

ولم تطق صبراً. . . صرخت. . . صرخات مرعبة مهولة. . . والنار تفترس جسدها فهب كل من في البيت وتدافعوا الى المطبخ المغلق من الداخل بين ولولة الأم وصرخات الأب والأخ والعويل الذي اتقد في البيت مع اتقاد النار. . . وذلك الضرب المزلزل الذي كيل للباب حتى انفتح مكسوراً.

وجاءت النجدة. . . واطفئت النار و «مهجة» بين الحياة والموت.

وفي المستشفى. . . انقذت «مهجة». . .

ولكنها لم تعد تلك «الدمية» الحلوة التي يهيم بها «حسن»، لقد تشوه وجهها الجميل المضيء واحترق حسنه الذي يدير الرؤوس. . .

وقال الأهل ان «الحادث» مجرد قضاء وقدر وليست محاولة انتحار. . .

وزارها «حسن». . . زيارة واجب. فقد احس أنها لم تعد تلك التي كان يصبو اليها بعد أن تشوهت. . . وتغاضى عن «الخطبة» واعتبرها كشيء لم يكن.

وعندما خرجت من المستشفى. . . وزارها بعد ذلك «هشام» بصحبة والديه لم تكن زيارته مجرد واجب. . . فقد تقدم إلى والديها يطلب يدها. . .

وطأطأت الأم رأسها في خجل من نفسها وهي تقول مع الأب. . .

ـ الف مرحباً بـ «هشام» ولنا الشرف. . .

المجموعة الثّالثة

- ○○ الليل في حارة «الجواري»
- ○○ السّفاح
- ○○ عمارة الحاجة «ام سلامة»
- ○○ بنت جديدة



اللّيل . . في حارة الجواري

طرق الباب في اضطراب شديد وهو يمسك بالرّتاج حتىّ يحفظ توازنه، وجاوبه صوت من الداخل يسأل من؟ وردّ هو بتلعثم تقريباً:

ـ انا . . اسماعيل.

وفتح الباب في عنف، وبرز ابوه، وقبل ان يفيق اسماعيل من هذا المشهد الذي اطار نشوة الليلة من دماغه، ـ مشهد بروز ابيه لا امّه هذه المّرة ـ صاح فيه الأب:

ـ لماذا اتيت الآن؟ وتجيئني مخموراً لا تكاد تحملك قدماك؟ تجيئني بهذه الحال التي لا يحسدك عليه حتىّ المجانين؟ اغرب عن وجهي . . . لا اريد ان ارى سحنتك بعد اليوم.

كان صوت الأب يمزّق قلب السّكون الهامد في تلك الليلة الظّلماء

التي لا يسمع فيها الاّ انفاس الذين انهكتهم دوّامة العمل في النهار فداروا في رحاها كأنهم طواحين، فتوقّفت سواعدهم عن الحركة عندما بدأ الليل يجنّ، واحتوتهم اسرّتهم كأنهم الأشواق في الصدور اللهفى. . والاّ من نباح كلب مسعور ينطلق بين الفنية والاخرى كأنه صرخات احتجاج على الحياة، فالليل في حارة «الجواري» يزور هذه القطعة من المدينة مبكّراً فينام اهلها مبكّرين، فجلّهم او معظمهم من ذوي الدّخل المحدود او ذوي الاعمال الشّاقة من الذين يحملون الحطب على الجواري ـ العجلات ـ التي تجرّها الجمال.

بدا صوت الأب ممزقاً للسكون في تلك الليلة الهامدة فحارة الجواري لا تعرف السّهر الاّ فيما شذّ وندر من الاحوال كأن تقام في الحارة حفلة سمر شعبية بمناسبة قران، او كأن تكون احدى الليالي الرّمضانية التي تحفل بالاذكار والتراتيل، تضوّع جوّ الحارة برائحة الشّهر الكريم، الشّهر الذي ينام فيه الناس جزءاً من النهار ليجعلوا الليل سهراً متصلاً ويقظة دائمة، اما عدا ذلك فالحياة لا تعرف الليل الصّاخب في هذا الحيّ الشّعبي العريق.

وبدا امراً نابياً ذلك الصّراخ الذي انطلق من فم الأب. . بل من عينيه وقلبه واعماقه كلّها وهو يرى ابنه يعود مترنحاً من شدّة ما افرط في الشّراب، فالشـرب في نظر الاب المتديّن المحافظ جريمة لا تدانيها جريمة، وهي جريمة يستنكرها اشدّ الاستنكار على الغير فكيف به وهو يرى ابنهَ يقارفها. ولقد ترامى الىٰ سمعه طرف من هذا النبّأ، نبأ معاقرة ابنه للخمر، فاستفظع ذلك وتشكّك بادىء ذي بدء لولا ان القائل له كان ثقة، اكّد له ان ابنه يسهر مع مجموعة من رفاق السّوء،

وان هذا الاختلاط هو الذي كان سبب فشله في الامتحان النهائي، وانه يحسن به ان يتدارك الشّاب قبل ان يسقط سقطة لا قيام بعدها.

* * * *

بعد ان قفل راجعاً عقب ذلك الموقف الهائج وصدى اغلاقه للباب يرن في مسمعه، اطفأ الاب النّور، واندسّ في فراشه وفي داخله شيء يتقّد كأنه الجمر، وفي سمعه نشيج مكتوم من الدّاخل... انّه بكاء زوجه، بكاء لا صوت فيه، فهي تحب ابنها بكلّ مجامع قلبها ولكنها مضطرة الى ترك معالجة سوآته لأبيه بعد ان اعيتها الحيل.

كانت عينا الأب عالقتان بالسّقف... وفي اعماقه الخرساء تعصف رياح الغضب...

ماذا يصنع...؟ اعيته الحيل مع «اسماعيل» حقّاً...

انه الولد الوحيد بين ثلاث بنات.. الحبيب الأول الذي طالما تمنّاه منذ ان بني بأمه وبشّر بحملها، فلمّا ولدت انثى خابت ظنونه، واوشكت فرحته على الانطفاء لولا أنه مؤمن فترك الخيرة فيما اختاره فلم يعلن برمه، حتىّ حملت زوجه ثانية ففرح املاً في ان يكون الحمل هذه المّرة ذكراً، ولكن المولود جاء انثى ايضاً ولّما حملت زوجه للمرة الثّالثة وولدت بنتا اوشك الغضب ان يعصف به ودعى ربّه «يا رب أريد ولداً يخلفني ويقيم أود شيخوختي، فهلاّ رحمتني وانت أرحم الرّاحمين؟»

وكأن ابواب السّماء كانت مفتوحتة لدعائه، فما لبثت زوجه ان وضعت حملها الرّابع فكان.... ذكراً اسماه «اسماعيل» تيمنا باسم والده....

ورقصت جوانحه كلّها طرباً وصلىّ صلاة شكر لله وأولم لأهل الحيّ وليمة كانت حديثاً يذكر وتقبّل التهاني وهو يهتّز طرباً وانتشاء.

ونشأ الفتى مدلّلاً يؤثره ابواه دون سائر شقيقاته البنات.

كان يذهب الى المدرسة على عربة يجرّها حصان يدفع ابوه لصاحبها مرتّباً شهرياً، وكان يشتري له ما يشاء فلا يكاد يسأل عن شيء حتىّ يجده، ولا تكاد تصيبه عارضة من العواض حتىّ يأخذه ابوه الى الطبيب او يكون الطّبيب في البيت لعيادته. . . فاذا ضرب احدى شقيقاته كان هو المجنيّ عليه الذي ينتصر له ابوه دائمًا، واذا اعتدى عليه احد اقرانه ولو بكلمة هاجت الدّنيا وماجت، ثم قامت ولم تقعد.

كان كل شيء بالنسبة لأبيه، أليس هو «ولي العهد»؟، امّا البنات فانهن اناث، غاية ما يرجى منهنّ ان يكنّ زوجات صالحات لا تجشّم الواحدة أباها أمرها بعد ان تصبح ربة بيت. . . في كنف رجل آخر.

وعلى هدى من هذه العقيدة أسرف الأب في تدليل اسماعيل، الذّكر الوحيد بين باقة من الاناث، كلّهن خادمات له وهو سيّدهن وان كان لهنّ شقيقاً.

ونشأ عن ذلك شعوره بالاستعلاء عليهن واضطهادهن ما دام ابوه يحميه دائمًا، ولكنهّن رغمًا عن ذلك لم يكرهنه وان بدت العلاقات بينهن وبينه في بعض الاحيان تصل الى ذروة الخصام والقطيعة.

ولم يتنبه الأب الى مغبة ذلك التدليل الاّ بعد فوات الأوان. . وبعد ان نبّهه احد اصدقائه الى خطورة الطّريقة التي يعالج بها اخطاء ابنه،

وفي مبدأ الامر كان يدافع عنه متعلّلاً بصغر سنّه ، فقد كان اسماعيل على الدوّام في نظر ابيه طفلاً حتى بعد ان بدأ يشّب عن الطّوق ويرتفع بناء قامته وتبدو عليه علائم الرّجولة المبكّرة.

على انّه رغم نموّه المبكّر، كان اسماعيل يبدو طفلاً دائمًا في تصرفّاته، فهو حتىّ رغم بلوغه سنّ الرّابعة عشر لم يكن كالاطفال من اقرانه يدرك حقيقة مستوى عائلته، وكيف انّه يجب ان يكون له طموح، وكان يهوى كرة القدم ومع الكرة يهوى العراك والشّجار رغم التباين بينهما، وينجذب انجذاباً لا حدّ له الى الافلام التي تحفل بالمعارك ويكون فيها البطل ملاكمًا قوياً قاهراً لخصومه.

وكان ترتيبه في المدرسة متأخراً، وفي مبدأ الأمر كان الأب يأخذ المسألة ماخذاً هازلاً، ولكن الدوائر الحمراء المشيرة الى ضعف الطّالب اسماعيل ابراهيم عبد المؤمن في اهمّ المواد الرّئيسية جعلت الأب يشعر بخطورة الأمر فعهد امر تقويته الى احد المدرسين الخصوصيين، دون جدوى، فقد استمرّت انحرافاته تبرز شيئاً فشيئاً الى ان وصلت تلك الذروة التي لم يعد الأب قادراً على احتمالها حين نبا الى سمعه نبأ معاقرة ابنه للخمر.

كان الالم يعتصر قلب الأب كلماّ فكّر انّه يقسو على الحبيب الغالي الذي طالما تمنّاه ودعى الله ان يرزقه به حامياً للاسرة من بعده، وقيمًا على شقيقاته الاناث، الحبيب الذي كادت حبال شوقه اليه ان تتقطّع . . .

ها هو المرتجى يصبح مصدر آلامه، وهذه هي حاله التي لا تسرّ.

لقد بلغ به الاستهتار حدّ سرقة حلّي أمه ليصرفها على مباذله وها هي شكاوى النّاس منه لا تنقطع فقد بات مسلكه يؤرقه ويمزّق نياط قلبه.

اهذا كلّ ما كان يرتجيه من الغلام؟
وبناته... سلمى وليلى وفاطمة...
شدّ ما كان يتطيرّ من البنات ويسمّيهن.... الفضائح.

وعندما اتممن المراحل الابتدائية للدراسة كاد ان يقطع دراستهن ويأمرهن بالاحتجاب في البيت لولا ان تدخّل بعض اقرباء زوجه وصدّوه عن هذه الفكرة، وعلى الاخصّ ان البنات مجدّات في دروسهن ويرجى لهن من وراء هذا الجدّ مستقبلاً لامعاً.

كان ابراهيم بن اسماعيل عبد المؤمن يقهقه من اعماقه حين يحدثونه عن مستقبل البنات ويقول لمحدثه:
«ناقصات عقلاً وديناً» ويذهب في السّخرية الى ابعد مدى اذا كان المتحدّث قريباً او صديقاً له بنات ايضاً قائلاً «مهما برزن وتفوّقن فالسّرير هو المصير».

ولكن البنات.. بناته، تفوّقن فعلاً، واصبح من لا يرجى فيهن، اعظم الرّجاء.

فسلمى تعمل مدرّسة مرموقة في ثانوية البنات وهي مرشحة لأن تصبح مديرة للمدرسة في العام المقبل...

وليلى... موظّفة مرموقة في احدى الشّركات التجارية الكبرى وهي قد اوشكت على الانتهاء من دراسة الاختزال تمهيداً لشغلها لمنصب سكرتيرة.

وفاطمة نالت شهادة الثّقافة العامة بتفوّق لا نظير له وهي تطمح الى مواصلة دراستها لأنها تريد ان تكون طبيبة ما دامت سلمى وليلى قد قبلتا ان تصرفا عليها في الخارج، وما اظنّه سوف يمانع بعد ان لمس بنفسه ثمرة تعليم بناته.

انهّن يحببنه من اعماق قلوبهن ويحترمنه، وها هن يوشكن على ان يكّن القائمات بشئون البيت بعد ان احيل هو الى المعاش، ولو لم يرزق بهنّ لأصبح حاله غير حاله الآن، فقد عرف البيت الانفاق عن سعة ودخلت اليه وسائل العصر الحديث واصبحت اعمال الكنس والطّبخ والغسيل والتهويةاعمالاً ممتعة تقوم بها الوسائل العصرية، بل واشترين قطعة ارض سوف يشرف الأب على بنائها في اجمل ضاحية من ضواحي المدينة في الشّهر المقبل.

كانت هذه الخواطر تنتال على رأسه المستند الى الوسادة وهو ّممدد... ونشيج زوجه المكتوم يتدانى الى مسامعه، ففرّ النوم من عينيه وراح يشاغل وحدته وخواطره باجترار السّيجارة تلو السّيجارة حتىّ اتى على علبة بحالها دون ان يشعر...

وكان كلّما حاول ان ينام تهيّجه شجونه ويتأسى على ابنه، وكانت فورة الغضب فيه قد بدأت تبترد ليحل محلها ضباب من الحزن والتأمل اعادا إليه رشده الذي توارى ساعة ان طرد الفتى، وقد كان

من الصّعب ان لا يستسلم للغضب وهو الذي ظّل ينتظر الغلام ساعات وساعات عقب اكتشافه في ذلك اليوم ـ وعن طريق الصّدفة ـ ان ابنه يعاقر الخمر وانّ ليله الذي يقضي ثلثيه خارج البيت لم يكن للاستذكار فما كان منه الاّ ان وقف ذلك الموقف العاصف . . . فطرده من البيت.

لم يذكر كم مضى عليه وهو على حاله تلك، يتأمل وتجرفه شجونه وهو يستعرض احداث الليلة . . . هل كان على صواب حين طرده؟

هكذا ساءل نفسه، ولكنه ما لبث ان وجد تبريراً لعمله، فالفتى قد قطع شوطاً بعيداً في غيّه وكان لا بدّ من عمل ما، غير انّه رغم هذا التدهور الذي وصل اليه الفتى الاّ ان علاجه ليس امراً متعذّراً ميئوساً منه ولم يبلغ بعد مرحلة اللارجوع.

ان الفتى . . شاب، وفرصة علاجه لم تفت بعد، وان كانت تتطلّب بعض الشّدة والصّبر الطّويل.

واقنع الاب نفسه بأن طرده من البيت كان عقوبة لا مناص منها، وفي الغد سوف يتدبّر الأمر مع بعض الاصدقاء الخيرين الذين يتبادل الرّأى معهم ومع بعض اقرباء زوجه.

لو انّه لم يخضع لقرارهم بتعليم البنات، لكان حاله اليوم سيئاً . . . .

ان البنات وعدنه بأنهن لن يتخلّين عنه مهما كان الامر ومهما طرأت على حياتهن من «تبدّلات» وفهم هو ماذا تعني هذه «التبدّلات»، وللمرة الأولى راح يدرك معنى «الأنوثة» و «الذكورة» . . .

ان الابناء يعيشون اجيالاً وازمانا غير تلك الاجيال والازمنة التي يعيشها الآباء.

ادرك الآن انّه اخطأ في تدليل ابنه، فقد نشأ هو نشأة اخرى غير تلك النّشأة التي انشأ عليها الغلام، فقد كان ابوه يربّيه تربية صارمة ويفرض عليه اداء الصّلوات الخمس، ولم يكن يضايقه وهو غلام الاّ ان يصحو عند التباشير الاولى للفجر لاداء الصّلاة وقراءة «الرّاتب» الخميسي مع اصدقاء ابيه من روّاد الطّريقة «الدندراوية» وكان ذكر المرأة يقترن في خياله بالعمل القبيح، وقد نشأ دائمًا على تعوّد ذكرها بلفظ مسبق هو «اعزّ الله السّامع»، ولو كان ابوه على قيد الحياة لما رضي ان تدخل بناته ـ كما لم يرض ان تدخل عمّاتهن ـ المدارس.

وقطع عليه تسلسل خواطره همسات خافتة تزامت الى سمعه وهو سادر في وحدته...

واصاخ السّمع ، واستطاع بسهولة ان يميّز هذه الاصوات الهامسة المكتومة، انهّن بناته قد استيقظن على الحادث ولم يسمع نبرة «فاطمة» ففاطمة ذات نوم ثقيل وطالما تسبّبت عملية ايقاظها من النوم في الصّباح في نشوب المعارك بينها وبين اختيها وهي معارك كلامية تدعوه الى الضّحك بينه وبين نفسه وان كان يحرص دائمًا على تجاهلها وعدم التدخل فيها يشجر بين البنات.

انهّن لم يجرؤ ن على السّمع فاذا الهمسات تنقطع ولا يرين من حوله سوى السّكون.

وما لبث ان سمع جلبة التباشير الأولى للبكور من خلال مقدم

«القوافل» المبكّرة التي تقطع الليل بطوله من الحميات واليمن الى عدن محملة بالخضروات، فقد كان السّوق قريباً جدّاً من حيّ «الجواري» وبعدها صعد المؤدن يقوم باداء الاذّكار تمهيداً لأذان الفجر.

وتَقلّب على سريره قليلا وهو يحاول ان ينام السّاعات القليلة الباقية طاوياً جراحه...

ونفث الليل على الجراح سكينة من عنده فاذا جفونه تثقل واذا به يهمس لنفسه وهو يتثاءب:

ـ سينام الخبيث عند احد اصدقائه ولن يعدم فراشاً وربما كان الآن يغطّ في نومه، وانا وحدي الذي سهرت الليل كلّه».

السّفاح

اسمه «عبد الفتّاح». . .

ومع ذلك فقد طغى لقب السّفاح على اسمه حتىّ كاد يخفي معالم هذا الاسم ويطمس حروفه. . .

ولقد روى عنه الكثيرون حكايات تشبه الأساطير. . . حكايات جريئة عن اعمال القتل التي ارتكبها في هدوء وثبات راسخين، فقد كان ازهاق الرّوح البشرية بالنسبة له كأشعال سيجارة بعود ثقاب، عملية بسيطة. . . . سهلة عند ارتكابها، وان كانت تتطلّب ان يرابض للضّحية بصبر وجلد، ويدس مواقع قدميها، ويتعرف على الاماكن التي ترتادها، ويدرس مواعيد ذهابها وقفولها دراسة دقيقة محكمة، وتلك كانت هوايته التي يمارسها بشغف ولذّة، حتىّ اذاما سنحت الفرصة الملائمة افرغ في ضحيّته رصاص مسدّسه دون ان يرفّ له جفن. . وينتهي كلّ شيء.

ومع ذلك، فـ «عبد الفتاح» لم يكن سفّاحاً عادياً من اولئك القتلة المتعطّشين للدّماء حبّاً في الشّر لذات الشّر، او الذين يقتلون للارتزاق، فهو لا يرتكب أي عمل من اعمال القتل الاّ بعد ان تتوفّر

له «القناعة الكافية» ـ على حدّ تعبيره المألوف عنه اذاما اقتنع بشيء ـ.

انّه لم يقتل ابداً بقصد السّرقة او الانتقام الشّخصي او بدافع من حبّه للمال، فتلك دوافع لم تخطر له على بال، في أية عملية قتل رهيبة من العمليّات العديدة التي مارسها، ولكنّه يقتل من أجل شيء واحد، ولسبب واحد هو ايمانه بأن ما يفعله ليس سوى للمصلحة الوطنية العليا.

و «المصلحة الوطنية العليا» بالنسبه لـ «عبد الفتّاح» اشياء دقيقة، محدّدة ومدروسة، فاذا كان بعض الزّعماء في نظر اكثر الناس وسوادهم معروفين بأنهم من غلاة الوطنيين الذين قدّموا لبلادهم أجلّ الخدمات وعملوا في الحقلين الوطني والاجتماعي مضحّين بحياتهم وأموالهم ورفاهيتهم الشّخصية، ومعرّضين أمنهم ومصالحهم للدمار، فان هؤلاء انفسهم قد يكونون في نظر «عبد الفتّاح» على رأس قائمة اولئك الذين يجب ان يبادوا ويخنقوا ويستصفى وجودهم لأنهم اخطر على المصلحة العليا للوطن من الخونة والعملاء المباشرين للسلطات الاستعمارية لأنهم برجوازيون او ذوو توجّهات بورجوازية حادة تطمح الى امتلاك عواطف الجماهير وثقتها لتسلّم البلاد في المستقبل وحينما تصبح صاحبة السّلطة الحقيقة للرأسمالية والامبريالية العالمية.

ولم يتلقّ عبد الفتاح تعليمًا عالياً، بالاضافة الى أنه ـ اصلاً ـ ليس من ابناء عدن، ولا من ابناء المنطقة المحتلة، ولا حتىّ من ابناء المدن اليمنية القريبَة والمتاخمة لعدن، وانما هو من اقصى اقاصي الشّمال

اليمني، من بلدة «الجوف» الجبلية الصّحراوية، ورغم ان طفولته غير معروفة تماماً الاّ انّ تصرّفاته تنبيء عن قسوة الحياة التي عاشها في منبته الصّحراوي وسط سلاسل من الجبال الوعرة والارض الجذباء القاحلة والحياة المكفهرّة، والتقاليد البدائية التي تعتبر القتل لأتفه الاسباب قمّة المجد والسّؤدد والفخار، ورغم انه عاش قسطاً وافراً من حياته في المدن وعمل مدرّساً، الاّ ان الحياة المدنية لم تستطع الاّ ان تؤثرّ في مظهره فقط امّا اعماقه فقد كانت ضارية، شرسة، يحرقها ذلك الظّمأ المسعور الى البطش والتسلّط و. . . الدّم.

ومن أجل ذلك كان اكثر خطراً من القتلة المحترفين، الذين تطلّ شراستهم من عيونهم واظافرهم واسنانهم. . . واكثر ضراوة من اولئك السّفاحين القتلة الذين يراهم الناس في افلام الرعب ويتعقبهم البوليس ويطاردهم ويمسك بهم في النهاية ليأخذوا جزاءهم العادل.

ذلك لأن اولئك القتلة كان مصيرهم دائماً الموت بحبل المشنقة او بغرفة الاعدام بالغاز او بالجيلاتي، امّا «عبد الفتّاح» فقد اصبح يرفل في مصير آخر هو انه اصبح وزيراً، ثم عضواً في المجلس الجمهوري، واميناً عاماً للحزب «الطلائعي» التقدمي الأوحد في البلاد، وربما اصبح ذلك المصير اكثر اشراقاً وبهاء حين يفلح في تصفية حلفائه وشركائه اليوم ويغدو رئيساً للدّولة ومصدر «الاشعاع الاعظم» لنور اليقين. . . الأحمر في المنطقة.

* * * *

في ذلك اليوم من ايّام ديسمبر كانت وزارة الارشاد القومي والاعلام خلية نحل. . . .

حركة نشاط دائبة هنا وهناك . . . الموظفون مشغولون . . غرف الوزارة مكتظة بالناس . . . حركات السّعاة لا تتوقّف، اصوات النقر على الآلات الكاتبة تفرقع كلعلعات الرّصاص في الاسماع، المراسلون الصّحفيون، مندوبو وكالات الانباء من كلّ البلاد يملاؤ ون الوزارة . . . عشرات الاقدام الصّاعدة الهابطة في جميع سلالم المبنى الضّخم الكائن في التواهي بالقرب من دكّة «الابكاري» . . غرفة «الوزير» عليها ثلاثة حرّاس مدججين بالسّلاح . . واربعة فراشين . . . غرفة السكرتير الخاص للوزير مكتظة بالزّوار، الجالسون منهم والقاعدون والذين يريدون ان يدخلوا ولا يجدوا متّسعاً لأقدامهم رغم رحابة المكان . . .

ولم تهدأ الحركة قليلاً الاّ في تمام السّاعة الواحدة بعد الظّهر . . . حين قيل لكبار الموظفين في الوزارة بان معالي الوزير يريد ان يجتمع بهم .

وعلى مائدة مستطيلة تملأ قاعة الاجتمعات «الكونفرنس رووم» كما يسمونها جلس الموظفون في هدوء، لا تسمع في المكان على رحابته وعلى اكتظاظه بالموظفين سوى نحنحة شاردة من هنا وكلمة هامسة هناك وعيون تحتشد في رؤ اها اشتات الخواطر والتأملات التائهة . . الحائرة، الغارقة في سحائب كثيفة من الدّخان الذي يملأ المكان . . . .

و . . . دخل الوزير . . . ووقف الكلّ له احتراماً . . . واطفئت اعقاب السّجاير في المنافض . . . وفي خطوات واثقة ثابتة، رصينة . . اتخّذ «عبد الفتاح» مكانه الشّاغر المنتظر في الغرفة حول المائدة

المستطيلة. . . . وبصحبته السّاعي الخصوصي الذي يحمل الملفّات . . وحيّا الجميع في اقتتضاب. . . وقدّم «سكرتير الوزارة العام» كبار الموظفين اليه واحداً واحداً. . .

واحتار الكثيرون ممن لا يعرفونه وان كانوا قد سمعوا عنه الأهوال. . . .

لقد رأواه شيئاً آخر غير ما تصوّروه. . .

هذا، الشّاب، الوسيم، الوديع. . الخجول. . . ذو العينين المبتسمتين. . المتألقتين دائماً بشيء مضيء. . وهّاج، ومحبّب، هل يمكن ان يكون بذاته، بشحمه ولحمه. . . ذلك «السّفاح» الذي سمعوا عنه؟

هذا الوجه المتألق. . الخجول. . الحيي. . .الذي يتصاعد الدّم احمر قانياً على وجنتيه. . . .هل يمكن ان يكون ذلك الذي يريق الدمّ ويفّجره من الرّقاب والصّدور مهراقاً؟

هذا الصّوت. . الذي لا يكاد يسمع، والذي تنبسه الشّفاه كلمات رشيقة. . أنيقة. . . ذات وقع سلس عذب. . . ونبرة رخيمة. . . تخدّر الاسماع وتدغدغ حبات القلوب، وتنتقي موقعها في النّفس مؤثراً. . . . مقنعاً. . . هل يمكن ان يكون صوت. . . سفاح؟

كانت هذه الخواطر تجول في اذهان اولئك الذين لم يسبق ان رأوه، ولم يشاهدوه الاّ في تلك اللحظة التي اجتمع فيها بهم، حين نظر الى ملفّاته والانتاج وقيمة العمل والانسان في السّلطة الوطنية الجديدة

التي تختلف عن قيم العهد الاستعماري . . . السّلطة التي تؤمن بالكفاءة والابداع والعطاء لا المحسوبية والمنسوبية والنفاق . . .

وزاد من تقديره أنه سأل الموظفين واحداً واحداً عن متاعبهم وعن مقترحاتهم لتطوير الانتاج والعمل في حقل الوزارة ثم راح يدوّن في مفكّرته كّل ما عنّ لهم من اقتراحات بعد مناقشتها ، بأسلوب مذهل ومقنع . . . وذي وقع مؤثر في النفوس .

دبّ الحماس في صفوف الموظفين ، وعلى الاخص انّ الوزير «عبد الفتاح» أكد للجميع بأن «الثورة» لم تجيء الى السلطة لتنتقم او تقتّص من أحد ، فالماضي قد ذهب بكّل مساوئه ، وان صفحة جديدة للعمل الوطني قد فتحت وان السّلطة الجديدة تدرك تمام الادراك أن الموظفين يتمتعون بروح عالية وكفاءة نادرة وانّ من الظّلم ان لا تستعمل كفاءتهم وخبرتهم في خدمة العهد الجديد ، فالثورة قد تستطيع ان تجلب المعدّات والآلات ولكنها لا تستطيع ان تهدم الكفاآت الخلاقة بحجّة انها كانت تعمل في العهد الاستعماري ، ذلك لأنه من السّهل ان توجد الوسائل ولكن . . كم من الزّمن نحتاج لكي نخلق الكفاآت القادرة والمنتجة والخلاقة؟

انّ هذا ـ كما قال ـ شيء لا يمكن ان نتحمّله ، لأن معناه ان تتوقّف عجلة الانتاج حتىّ يمكن ان نهيّء كفاآت اخرى لن تتهيّا الاّ بعد عشرات السّنين ، بينما في امكاننا ان نستفيد من الطّاقات الموجودة لدينا الى ابعد مدى وان نمنحها الثّقة لتمنحنا العمل والاخلاص ، فالثورة أم ، ولا يسع الأم الاّ ان تفتح قلبها لبنيها ، حتىّ لاولئك الذين

اخطأوا وفي نيّتهم التكفير عن خطئهم وبدء حياة جديدة.

تلك كانت بعض كلمات «عبد الفتاح».. غير أن ما كان يجري.. شيء آخر، يناقض ما قيل على خطّ مستقيم، اذ لم تمض سوى أشهر معدودات حتىّ فصلت الحكومة عشرات بل ومئات من الموظفين، لا تخفيضاً للنفقات كما قيل فقد حلّ محلّهم موظّفون آخرون كلّ كفاآتهم انهّم بلا كفاآت، وانهّم ليسوا سوى «مخلصين» للسلطة وسبق لهم ان حملوا السّلاح وفجّروا مجموعة من القنابل، واصبح وكيل الوزارة الجديد الذي حلّ محلّ وكيل الوزارة القديم ذي الخبرة التي عركتها ٣٠ سنة في حقل الارشاد والاعلام والذي يعرف مختلف اللغات، شاباً صغيراً لم يتم تعليمه الابتدائي، ولا يحسن أي لغة، بما في ذلك اللغة العربية.... وكان قبل اندلاع الثّورة وانضمامه الى «الحزب» يساعد والده في بيع «الفول»، ولا يزال هتافه وهو يبيع الفول منادياً «وايكيل» يرنّ في الاسماع.....

وهكذا... اصبح السّيد «وايكيل» هو.... الوكيل الجديد البديل عن الوكيل السابق... اللاثوري.

ولقد كان الادهى والأمر أن «عبد الفتاح» هو الذي كان يتزّعم حملة «الفصل» باسم «التطهير»... ويقيم بعملية تعطيل واسعة لكلّ الكفاآت التي قال عنها انهّا قديرة ونستطيع ان نضع امانة الثّورة والبلاد بين يديها وليس في مقدورنا الغاءها...

ولأول مرّة عرفت البلاد شيئاً اسمه «المواطن العدوّ» و «المواطن

المنبوذ» الذي لم يسبق له ان حمل السّلاح وكافح وناضل داخل الحزب لتعزيز انتصاره كأداة وحيدة وممثلة طلائعية حقيقية للشّعب.

* * * * *

لم يصدق الكثيرون من الموظفين حين ترامت الى اسماعهم انباء اعتزام السّلطة الاستغناء عن خدماتهم في القريب العاجل واحلال انصار الحزب محلّهم الاّ بعد ان تسلّموا أذونات رسمية بالفصل، واكثر من هذا انهّم فصلوا دون ان يمنحوا حقوقهم عن الخدمة الطّويلة المدى والتي استخلصتها السّلطة الجديدة من البريطانيين وأكلتها ملقية بهم الى العراء بعد تجريدهم من المنازل التي كانوا يسكنونها وبلا أي أمل في الحصول على اعمال وساد البلاد خراب اقتصادي شامل فالسلطة الجديدة لم تقم بأي دراسة جادة لما يمكن ان تصنعه في سبيل البناء الاقتصادي ولم تقدم لعشرات الآلاف من المواطنين الذين كانوا يعملون في القاعدة أي اعمال. وتوقف العمل حتّى في المشاريع الانتاجية القليلة وسخّرت موارد البلاد في سبيل تدعيم سلطة الحزب والدّولة، ووضعت القوانين الجديدة «الاشتراكية» واشيع ان الدولة تتجّه الى التأميم ثم عدل عن التأميم لأنه لم يكن هنا ما يمكن تأميمه سوى الفقر.... واجذبت الأرض الزراعية وتدفق الناس من الأرياف الى المدينة يطلبون عملاً بعد ان قيل لهم ان هذه الثورة هي ثورتهم وأنه قد آن الأوان لكي ينعموا بالرفاهية التي حرموا منها... وصفّت الشّركات القليلة اعمالها

وبلغت الأحوال الاقتصادية الى اسوأ درك من الانحطاط جعل البلاد على حافة المجاعة وشفيرها.

وانتهت شهور العسل الثّورية لتبرز الحقائق مرعبة ومخيفة ومدمّرة....

وحدث انقلابان في اقل من سنتين كانت الغلبة في آخرهما لجماعة «عبد الفتاح»...

وتقلصت سلطة القانون، واصبح الذين خرجوا على القانون هم الذين يضعون القانون.

ورأى الناس بأعينهم الحقيقة المرّة والمكفهرّة...

حقيقة الحزب الواحد المتفرّد بالسّلطة وحكم على الخصوم والمعارضين بالاعتقال والنفي والتشريد والاعدام والاغتيال، وحكم البلاد بقوّة «الماليشيا» و «الحرس الشّعبي» وضرب الجيش والوحدة الوطنية في الصّميم.

وكان «عبد الفتاح» هو النّجم المتألق، البارز في معظم هذه الاحداث...

وانثالت الذكريات السّوداء في النفوس... حين كان «عبد الفتاح» يفتك بيديه، بأصابع يديه بالخصوم... لقد ذكرت المدينة ذلك الحادث المفجع الذي روّعها....

حادث «مصرع رئيس المؤتمر العمالي»...

في مدينة «العمّال» التي كانوا ولا زالوا يسمونها «القلوعة» تارة

و «الرّوضة» تارة اخرى وقع الحادث المفجع وجرت عملية القتل. . ظهرا، والشّمس تتوّسط كبد السّماء.

كان رئيس المؤتمر العمالي قد نقل افراد عائلته الى منزل اقاربهم ريثما يجري بعض اعمال الترميم والتزيين للمنزل الصّغير في مدينة العمّال.

ولم يكن في المنزل سوى الرئيس وعامل واحد فضّل البقاء لتناول إطعام الغذاء مع الرّئيس واستئناف عمله في ترميم المنزل.

فجأة. . . جاء «عبد الفتاح» وسأل عن الرّئيس فبرز له. . . واستقبله مرّحباً باشّا، هاشّا. . . وشرعا يتحدّثان بودّ، فبينهما معرفة وثيقة وصداقة حميمة وان اختلفت الاتجاهات والميول السّياسية.

واراد الرّئيس ان يكرّم «الضّيف» فطلب الى العامل ان يسرع بالاتيان بزجاجة «كوكا كولا». . . وكانت تلك هي اللحظة التي يتمنّاها «عبد الفتاح»، فالعامل لا يعرفه، ولم يسبق ان رآه، واذا اقتضت الضّرورة فان في الامكان ان يفرغ فيه رصاصة او رصاصتين تجهز على ما يمكن ان يكون هو «الشّاهد» الوحيد للحادث.

وخرج العامل لجلب زجاجة «الكوكا كولا»، وتظاهر «عبد الفتاح» بالانصراف وبزهده في الشّراب، وكان رئيس المؤتمر العمالي يلحّ عليه بالبقاء. . . غير أنه أصرّ على الانصراف. . . وبينما الرّئيس يودّعه لدى الباب، اخرج «عبد الفتاح» شيئاً من جيبه، وقبل ان يتنبه الرّئيس الى هذا الشّيء الذي يخرجه ضيفه من طيّات بنطلونه، وكانت الرّصاصات القاتلة تفرغ في جمجمته وصدره ورقبته. . .

حاول الرّئيس في غمرة ذهوله والموت يمسك بخناقه والدّم ينبثق من جراحاته ان يمسك بالقاتل، ولكنّه تهاوى عند الباب صريعاً ويداه تطبقان على التراب تارة وعلى موضع جراحه عند العنق تارة أخرى... والقاتل يدور حول نفسه، في محاولة لاستكشاف موقع خطاه قبل ان يفرّ، فاذا العامل الذي جاء بزجاجة «الكوكا كولا» يشاهد المنظر المرعب امامه ولا يكاد يصدّق، و... يحاول ان يمسك بالقاتل، دون جدوى... فقد فرّ.... فرّ بعد ان ارتكب جريمته التي خطّط لها طويلاً وصمّم على ان يكون الوقت الملائم للتنفيذ هو «الظهيرة»، فالظهيرة في عزّ الحرّ اكثر ملاءمة لارتكاب فعلته من جنح الظّلام، فالناس في المساء، وفي مدينة «العمال» ـ القلّوعة ـ يخرجون الى السّاحات الفسيحة الواسعة حول منازلهم الصّغيرة يبتردون، وفي الظّهيرة تخلو الطّرقات او تكاد من المارة... ويلوذ كل الناس ببيوتهم هرباً من الحرّ القائض.

وبكت المدينة كلّها رئيس المؤتمر العمالي، الشّاب الطّيب الدّمث، المحبوب، المتواضع، الذي كان اشبه ما يكون بالأم الحنونة لكلّ العمّال، والذي رفض سكن القصور ليسكن في مدينة احبابه واصدقائه وأخوته العمّال.

وخرجت المظاهرات التي تندّد بالقتلة المجرمين، وكان تشييع جثمان رئيس مؤتمر العمال مناحة كبيرة تنقطّر حزناً على الرّجل الحبيب، وتتقد قلوبها غيضا من قاتليه، وفي مقدمة الجنازة اطفال الرّئيس الصّغار الذين كان منظرهم ينفث السخّط في نفوس الناس كانتشار النار في الهشيم.

واهتمت السّلطات البريطانية بالحادث، وبديء في التحقيق . . .

واستجوب العامل، الذي كان شاهداً عيانياً له، ولكنّه لم يكن يعرف شيئاً عن القاتل حتى اسمه. . . لا يعرفه اذ لم يكن يصيخ السَّمع الى الاحاديث المتبادلة بين القاتل والقتيل . .

ولعل الخيط الوحيد الذي كان بيد رجال الأمن والذي قد يؤدي الى اكتشاف القاتل كان ـ من محاسن الصّدف ـ المسدّس، الذي سقط من يده في محاولة العامل الامساك به، وفراره دون ان يعني باسترجاع المسدس حتىّ لا يبرز احد على صرخات العامل التي لا تكاد تسمع في عزّ الظّهيرة في الحيّ.

وبالتعرف على رقم المسدس، ادرك رجال الأمن أنه مسّدس مرخّص، وان صاحبه هو نائب ولاية ريفية اسمها ولاية «المفلحي».

واستدعي نائب ولاية المفلحي، ولكنّه اثبت أنه كان في بلدته يوم وقوع الجريمة، وان كان لم ينكر ان المسدّس هو ملكه، غير أنه قال بأنه اعاره الى موظّف كبير بوزارة الزّراعة اسمه «أنور» كان قد زار الولاية في مهمّة زراعية وطلب ان يستعير من شيخ «المفلحي» المسدّس لحاجته اليه متعللاً بخطر بقائه بلا سلاح في الحدود الرّيفية غير الآمنة اثناء ادائه لوظيفته.

ولدى محاولة استجواب موظّف ادارة الزّراعة الكبير السّيد «أنور» اكتشف أنه هرب فجأة الى اليمن. لقد وضّب «الحزب الطّليعي» الأمور كما ينبغي. . . في فترة «كفاحه المسلح» للاستيلاء على السّلطة، فـ «انور» لم يكن سوى «عضو سري» في الحزب الذي كان

يعمل «تحت الأرض» . .

وسرى الشك في ان يكون القاتل هو «انور» ما دام قد فرّ. . .

وتوالت اعمال القتل بعد ذلك. . .

بنفس الطّريقة المروّعة قتل موظّف كبير في «المخابرات»، وهو عربي، انيط به ايضاً استكشاف سلسلة من اعمال القتل ايضاً وكانت تساوره الشّكوك في ان يكون القاتل واحداً في كلّ هذه الحوادث، .

وروّعت عدن ايضاً بمصرع ضابط بوليس كبير، ثم بمصرع رئيس المجلس التشريعي السّير «تشارلسون» وهو يبلغ الثمانين من عمره وكان معروفاً بأنه يعطف على القضية الوطنية ويصطدم مرارا بالحاكم البريطاني الأحمق وليم لوس، واوشك على الاستقالة في نفس اليوم الذي تمّ فيه مصرعه. . .

وكان «القاتل» في كلّ هذه السلسلة هو: عبد الفتاح. . .

لقد كشف النقاب عنه فجأة الحزب الآخر الذي انشقّ عنه حزب «عبد الفتاح» ذات يوم في اليمن، حين ذهب ذلك العامل الذي كان شاهد عيان لمصرع رئيس المؤتمر العمالي في احد شوارع «تعز» . . . فقد كان ذلك العامل يمنياً يسافر الى بلاده كلّ موسم.

شاهده مرّة في الطّريق. . . دون ان يشاهده «عبد الفتاح»، وهدته غريزته الى تتبّع مكانه، وسرعان ما ابلغ المهتمين من رجال الحزب الآخر بالخبر. . .

وفي الحال تحرّك رجال الحزب الآخر. . وجاءوا بالعامل،

واجبروا السّلطات المصرية التي كانت تهيمن على اليمن ان تجيء بـ «عبد الفتاح» وسط مجموعة من الرّجال للتأكد من تعرّف العامل عليه، وما لبث ان عرفه العامل واشار اليه قائلاً:

- هذا هو بعينه، القاتل الذي اردى رئيس المؤتمر العمالي... دون سواه.

ولكن السّلطات المصرية كانت في مسيس الحاجة - في ذلك الوقت - الى حزب «عبد الفتاح»، ومن اجل ذلك عملت بكلّ جهدها حتىّ طوت القضية واخرجت عبد الفتاح من المشكلة كما تخرج الشّعرة من العجين.

وذهب دم رئيس المؤتمر العمالي، ودماء الكثيرين ممن قتلهم «عبدالفتاح» بيديه.. هدراً.

بل، لقد ضاعت الاسباب الحقيقية وراء جريمة «عبد الفتاح»...

ولم تكن الاسباب «شخصية»... ولكنها تتعلق بـ «المصلحة العليا» للوطن كما يراها عبد الفتاح.

كان رئيس المؤتمر العمالي يدعو الى «الوحدة الوطنية»، وكان يتصّل في اليمن بالجماعات والفئات التي نفاها الاستعمار البريطاني لتجميع القلوب ووحدة الصّف مؤمنا بان الوطن للجميع وليس لفئة دون أخرى أو جماعة دون سواها، وان المصلحة تقتضي التخطيط منذ الآن لمستقبل المنطقة قبل خروج البريطانيين والعمل يداً واحدة لانتشال الوطن من أي كارثة قد ينزلها به البريطانيون الذي لا

يحرجون من أي بلد إلاّ بعد ان يتركوا وراءهم الكوارث والمشاكل المعلّقة.

وكان هذا هو الخطر الذي يحاول حزب «عبد الفتاح» ان يتلافاه... وعلى الاخصّ ان دعوة رئيس المؤتمر العمالي بدأت تجد صدى حسناً في النفوس، وان لم يرض عنها المصريون في اليمن، والذين يقال انهم وجدوا في حزب «عبد الفتاح» الحزب الذي يمكنه ان يحقّق املهم في وراثة الانجليز بعد جلائهم عن المنطقة... بالرغم من أنهم تركوه الى «عرض» آخر، كثر اغراء من كلّ العروض التي جعلتهم يساندون حزب «عبد الفتاح».

ثم.. كان بعد ذلك ما كان من اندلاع نار الحرب الاهلية واستحواذ حزب «عبد الفتاح» على السّلطة وثورة الجيش في ٣٠ مارس ١٩٦٨ على نفوذ جماعة «عبد الفتاح» في الحزب وفي السّلطة ومن هرب «عبد الفتاح» الى اوروبا الشّرقية وعودته بعد ذلك وتخطيطه لضرب الرّئيس الشّكلي للحزب وللجمهورية وتفتيت الجيش... واخيراً، انتصار جماعته في الحزب، وتعيينه اميناً عاماً في الحزب وعضواً في مجلس الرّئاسة...

ولا تزال القصّة «عبد الفتاح» فصولاً اخرى يكتبها القدر...

ولقد قيل ان الفصول قد بدأت ـ بالفعل ـ في الصّراع المتمثل الآن بينه وبين رئيس الوزراء وزميله في مجلس الرّئاسة والخلافات الحادة بينهما، وانتصار الحزب كلّه لـ «عبد الفتاح» ضد رئيس الوزراء الحالي...

وليس يعلم الاّ الله وحده ما الذي سوف تسجّله الفصول القادمة في قصّة «عبد الفتاح» التي لم تتمّ بعد. . .

لقد جرت بعض محاولات الاغتيال كانت موجّهة لبعض رجالات الحزب من اولئك الذين يقال انهم لا ينسجمون مع عبد الفتاح. . .

امّا البلاد، فهي تنظر بشماتة وباحتقار الى ما يحدث من صراع. . .

فلقد ماتت كلّ امكانيات الحياة والنماء والرّخاء وسط هذه الكوارث وفي غمرة الصّراع من اجل الاستيلاء على السّلطة الكاملة.

* * *

و. . . صمت محدثي هنيهة ثم تابع كلامه:

ـ انّ «عبد الفتاح» ليس سوى نموذج للمخرب. . . القاتل، الذي ظنناه في يوم من الأيام، خطأ بأنه فدائي. . . غير أنه ـ في الواقع ـ ليس كذلك فلقد حمل الكثرين على الايمان به، والاذعان له وللعقيدة التي يعتنقها وللجهات التي يدين لها بالولاء، ولم يكن يملك أي بديل سعيد للنظام القديم الذي توفّر فيه قسط من الحرّية، غير الوعود بـ«الجنة»الحمراء، وكان يطلب ثمنها مقدّماً. . . الدماروالتخريب والاطاحة أولاً وقبل كلّ شيء بالمثل والقيم التي يؤمن بها الناس وبالانظمة التي الفوها واحبّوها وعملوا من أجلها طوال مرحلة النضال الوطني، منقضّا عليها بكلّ السّبل والوسائل، بالاغتيال والازهاق ان لم يكن يجدي ذلك الاسلوب الخلاب والمظاهر الناعمة والكلمات الحريرية المزركشة ولعاب الشّفاه الذي يسيل عسلاً.

عمارة الحاجة « ام سلامة »

قبل ان نتشرّف بمعرفة الحاجّة (أم سلامة) ، كان الكثيرون قد رسموا لها في اذهاننا صورة حيّة من صور الجشع والاستغلال ، فقد حذّرونا منها، ودعوا لنا بالنّصر عليها في هذه (الصّفقة) التي هي اشبه ما تكون بالمعركة بين خصمين غير متكافئين ، الحاجة (سلامة) ـ من جهة ـ وأخي وأنا من جهة اخرى.

ولم نكن من هواة المعارك ولكن (الحاجّة) وحدها هي التي جعلتنا على ابوابها فقد كانت ازمة المساكن خانقة تمسك بتلابيبنا وكنّا قد ضقنا اشدّ الضّيق من السّكن مع اهل زوجتينا الشّقيقتين وكان الاستقلال بمسكن واحد يجمع شقيقين وشقيقتين يبدو حلما من الاحلام في ظلّ الازمة الخانقة، ولكي يتحقّق هذا الحلم قرّرنا ان نطرق كلّ الابواب وان لا نترك وسيلة الاّ واستنفذناها في سبيل الاستقرار والهناء العائلي الذي لا يمكن ان يتحقّق عن طريق مسكن صغير كمسكن اهل زوجتي او اهل زوجة اخي ـ فعلى الرّغم من انهّما

شقيقتان الّا انّ كلّ واحدة منهما كانت قد عاشت في بيت منفصل من منازل الاهل بعيدة عن الاخرى.

وهكذا اضطررنا الى اللّجوء الى الحاجة (سلامة) صاحبة العمارة الجديدة التي اقيمت اعمدتها الاساسية قبل نهوض البناء وقبضت الحاجة من المستأجرين ايجار الشّهور السّتة الاولى مع مبالغ متفاوتة وان كانت باهظة تلك التي ما يسمّونها (حقّ المفتاح) او (خلوّ رجل) رغم ان شقق العمارة لازالت جنينا في عالم الغيب ولم تطأها ايّ رجل ... وهكذا قبضت الحاجة نصف تكاليف العمارة قبل ان ينهض لبناء.

كانت (الحاجة) قد ردّت الكثيرين من المستأجرين الذين توافدوا عليها بعد ان توسّمت فيهم عدم قدرتهم على الوفاء باشتراطاتها الجائرة وعلى الاخصّ فيما يتعلّق بالمسائل المالية... فالحاجة في المسائل المالية ارشيف بحاله، تبدو وكأنها رصيد في بنك لا يخطيء الحساب ولا تغيب عنه شاردة ولا واردة ، حتىّ لقد قال عنها جارها اليهودي(شلالا) انّ عيبها الوحيد هو انهّا ليست من بني اسرائيل.

ذهبنا الى العمارة وكانت الحاجة قد اتّمت بناء جزء من الطّابق الاوّل الذي يلي الطّابق الارضي حيث خصّصت هذا الطّابق للمستودعات وبدت ابوابها الحديدية الشّبيهة بالستائر كالعيون المغمضة ، وطرقنا مسكن الحارس(الشّوكي دار) وطلبنا الفرجة على الشّقق الجاهزة ، فوجدنا كلّ شقّة تتكوّن من ثلاث غرف صغيرة وصالة ومرافق وهي مغلقة لا تكاد تطلّ عليها الشّمس الّا من كوّة صغيرة تنشر بقعة شحيحة مضنية من ضوء الشّمس لساعات معدودة

في النهّار ثمّ لا تلبث ان تتلاشى وتغيب والشّمس لا زالت تسطع في الخارج وبعد الفحص الشّديد ، قرّرنا ان نتوكّل على الله ونضع كلّ ما اذخرناه بين يدي الحاجة فنحن في امسّ الحاجة الى (الحاجّة) او على الاصح الى مسكن الحاجة.

وقال لنا الحارس بانّ الحاجة ستعود من الخارج توّاً فهي قد انبأته بأنها لن تغيب طويلا ، وهكذا لم نجد بدّاً من الجلوس في انتظارها ، وما هي الاّ لحظات حتىّ اقبل الحارس علينا وهو يبتسم ، وتبدو على محيّاه آثار فكاهة كان يقهقه لها فلماّ سألناه عن الخبر وعدوى وابتسامته انتقلت الى وجوهنا، قال بانّ الحاجة بدت طلائعها من بعيد ، ومالبثنا ان سمعنا صوت عجوز يلعلع من الخارج، وهو صوت جهوري حاد له في الاسماع صلصلة كصلصلة الاجراس، فقد كان يبدو انهّا تتشاجر مع احد الباعة المتجوّلين وبعد ان اعيتها الحيل في تنازله عن السّعر الذي كان قد صمّم عليه لحزمة الفجل (البقل) الذي يبيعه، وما هي الاّ لحظات حتىّ دخلت الشّقة التي كنّا فيها وهي لا زالت تصيح قائلة :

ـ يساومني مساومة شديدة في حزمة بقل تغزع الغافلين . . اعوذ بالله من آدميين كأنهم الجنّ.

ولم تكن قد رأتنا بعد، فقد كان نظرها قصيراً رغم النّظارة التي كانت على عينيها، ولكنهّا ما ان انتبهت الى وجودها حتىّ هداها حسّها التجاري الى انّنا زبائن فقالت:

ـ اهلا وسهلا ياعيالي، اغفروا لي عدم رؤيتكما فانّ البصر قد اصبح من شدّة هموم الدّنيا ضعيفا.

فرددنا تحيّتها وطمأناها ان لا تثريب عليها ولا لوم ، وقبل ان نطرق الموضوع كانت الحاجة قد هتفت بالحارس قائلة له:

ـ تعالَ يا ولد، هات كوبين من الشاي . . ائت بهما من المقهى المجاور.

وقبل ان ينصرف الحارس استوقفته وهي تنظر الينا قائلة:

ـ الشّاي في هذا الحرّ ساخن ويزيد من حرارتهما وتصبّب العرق على ثيابهما (ثمّ الى الحارس) اذهب وآت بزجاجتي شراب. . .

ومرّة اخرى ، وقبل ان ينصرف الحارس استوقفته قائلة له (انتظر . . انتظر) ثمّ الينا:

ـ انّ المشروبات الغازية هذه الايّام ناقصة السّكر، ومغشوشة، وعلاوة على انهّا قذرة (ثمّ وبصورة مثيرة للاهتمام) هل سمعتما بالنّبأ؟.
ـ ايّ نبأ؟ (سألناها باهتمام شديد) قالت :
ـ لقد عثروا هنا في الحارة على زجاجة شراب مختومة بداخلها حشرة تشبه الصّرصار . . . علّة ، وقذارة.

فأبدينا تقزّزنا، ومانعنا من ذهاب الحارس لشراء زجاجتين لنا والحاجة تبدي احتجاجها وتقول:

ـ آو . . يا عيباه، لا شاي ولا شراب، لا والله هذا لا يجوز ، اذهب يا ولد وهات زجاجتين.

غير انّنا منعناه، فأصرّت واقسمت فلم نجد عند قسمها ما يجعلنا نمنعه فأخلينا سبيله وذهب الحارس.

وبعد هذه اللّجاجة ولطف الشّمائل الذي كان يبدو مصطنعا من الحاجة، دخلنا في الموضوع وقلنا لها :

ـ سمعنا ان لديك بعض الشّقق للايجار.

فبدت على وجهها سيماء الاسف وهي تقول:

ـ والله لا يغلو عليكم شيء يا عيالي، انّ آخر شقّة في القائمة احتجزها زبون موظّف في شركة وهاهو عربونه لا يزال معي ولو كان له لسان لنطق.

لم اقتنع بكلامها، فقد احسست بالغريزة انّ قولها ليس الاّ مناورة فثبّتت عيني في عينيها وقلت لها:

ـ اسمعي يا حاجة ، تأكدي انّنا هنا لم نجيء لمساومتك، فلسنا من الزّبائن الذين يعجبهم اللّت والعجن كما انّني يجب ان اعلمك بحقيقة قد تجهلينها وهي انّنا ندرك كلّ ما يتكبده امثالك من النفقات لبناء مثل هذه العمارة ونحن في سعة من الرّزق وان كنّا موظفين، هذا انا وهذا اخي، نريد شقّة واحدة فلنا زوجتان شقيقتان، وشقّة واحدة تكفينا اذ ليس لنا أطفال، هذه هي ظروفنا شرحتها لك للعلم فقط.

وثبتت الحاجة عينيها في وجهينا لتسبر غور كلامي ، فلم تر الاّ سيماء الجدّ في القول ، وهنا لم تجد بدّا من القول:

ـ اسمعا يا عيالي ، انّ لديّ شقّة واحدة للايجار سيتمّ بناؤ ها مع الطّابق الثّاني، شقّة واحدة وحياتكما، وطالما الحّ عليّ زبائن ومعارف كثيرون كي اؤ جرها فرفضت، فانني رغبت ان اؤ جرها لمن اتوسّم فيه

الحاجة الملحة ويكون زبونا طيّبا هادئا ليس له اطفال، وها قد وجدت ضالتي المنشودة فيكما...

تنفّسنا الصّعداء، وقلت في نفسي لقد اجتزنا منطقة الخطر ودعوت برجاء وحرارة ان يعيننا الله على ما تبقّى، وما لبث ان جاءني صوت الحاجة متمما كلامها:

- غير انّني اطلب ايجارا مناسبا، لا اتنازل عن ما قرّرته فلسا واحدا.. ذلك هو مبلغ خمسة وعشرون جنيها علاوة على (حقّ المفتاح) الذي لا يقلّ عن اربعمائة جنيه، فاذا اعجبكما الامر فتفضّلا. واذا لم، فليذهب كلّ منكما الى حال سبيله وكلّ واحد ما يلائمه.

حاول اخي مساومتها ولكنّها كانت قد قطعت الامر فلم نجد بدّاً من الرّضوخ واعطيناها مقدّم ايجار كعربون على ان نتسلّم الشّقة جاهزة بعد شهر واحد فقط، وقبل ان ننصرف استوقفتنا باهتمام قائلة:

- اسمعا. لن تمانعا ابدا اذا انا اعطيتكما وصل استلام الايجار بنصف هذا المبلغ...

تبادلنا النّظر، اخي وانا ذاهلين، وسألناها «ماذا تعني» فقالت:

- اعذراني يا ولدي، فانا امرأة عجوز لا تريد المتاعب ومن اجل ذلك اتّخذ الاحتياطات اللازمة لتجنّبها.

واستطردت تشرح لنا ما تقصده قبل ان نطلب مزيدا من الايضاح فقالت:

ـ تعرفان يا ولديّ ، انّه ليس كلّ النّاس طيّبين، وان كنت قد حدست انّكما من اولاد الحلال الطيبين منذ الوهلة الاولى ، الاّ انّ هذا اجراء اعتدت على اتخاذه وليس فيه ما يغضب سأعطيكما وصل استلام بمبلغ اثنى عشر جنيها فقط لا خمسة وعشرين ، ذلك من باب الاحتياط من متاعب لجنة الايجارات.

هذه العجوز المتغضّنة الوجه، المعقوفة الانف ، عاجزة البصر، والتي لا تني عن عدّ حبّات المسبحة بيدها كأنها تسبّح لابليس. . . ولكنّناوقدرضخنالكلّشروطها لم نجد بدّاً من التسليم والقبول بهذا الاشتراط الجائر، فقالت وهي تودّعنا:

ـ انظرا كيف تكون المكاتيب بين النّاس وكيف تجري المقادير (ثمّ بتحذير جاء على هيئة مزاح):

ـ ايّاكما ان تخيّبا ظنيّ الطّيب فيكما، او تفكّرا بالعبث بما التزمنا به والاّ فلا تلوماني اذا ما استعملت معكما وسائل تغلب الابالسة، واعلما انّ غيركما كان . . أشطر واسألا ان كنتما تجهلان.

فتصنّعنا الضّحك ونحن نطمئنها ، وقبل ان نخرج استوقفتنا صائحة:

ـ انتظرا . . انتظرا . . ما اشدّ عبث هذا الحارس ، انّه لم يعد بالشّراب بعد. . . انتظرا حتىّ يعود.

كان واضحا انّ المسألة « لعبة » ليس الاّ ، فلو كان بائع الشّراب يعسكر على قمّة « شمسان » لكان الحارس الذي ارسلته قد اتى به من هناك ، فما بالنا وبائع الشّراب على مرمى البصر من العمارة. . .

ودّعناها شاكرين. . . وخرجنا.

*　　*　　*　　*

ـ ما أفظع هذه المرأة.

قالها اخي فيما يشبه الهمس، وامّا انا فقد كنت اتملّ منظرها في خيالي، فتتمثّل لي وكأنها خفير من خفراء السّواحل ، تسدل على وجهها حين تساوم قناعا من« خفر العذارى »، طويلة، عريضة، ممتلئة، وعلى وجهها تزحف تجاعيد السّنين، وفي عينيها المنطفئتين بقايا تاريخ طويل من الخبث والدّهاء ابت الاّ استنزافه حتىّ آخر رمق. . . حادّة الصّوت، تبلع قاموسا بحاله من الامثال والطّرائف العدنيّة القديمة، فقد كانت تحدّثنا عن« المواصفات »التي تطلبها في الزّبون وكانت تقلّد بعض الزّبائن الذين لا يدفعون الايجارات بانتظام تقليدا كاريكاتوريا مذهلا ، معقّبة على ذلك بقولها:

ـ والله . . جئنا عليها، طمعانجي بني له بيت « فلسانجي » سكن له فيه

ورغم انّنا نجهل تاريخ حياتها بالتفصيل الاّ انّ قصاصات من هذا التاريخ ترامت الى علمنا ، فهي كما قيل كانت زوجة لتاجر متوسّط الحال خلّف لها شيئا يسيرا ثمّ ما لبثت ان استطاعت بدهائها وعصاميّتها ان تنمّي الثروة وتجعلها اضعافا مضاعفة خلال عام واحد فقط ، فافرغت كلّ همومها في جمع المال فنسيت الشّباب، والجسد البقري الذي كان لو انهّا اطلقت لغرائزه العنان، سيودي بمالها من زوج الى زوج ومن رجل الى رجل فأمثالها من النّساء يغرقن في (تعدّد

الازواج وعلى الاخص حين يشعرن بنضارة العصر تذهب وتذبل والشّباب يوليّ الأدبار.

لقد ترهبنت في دير المال، فنيمت كلّ شيء من اجله والعجيب انهّا لم تقطع فرضا، ولم تخلف للرّحمن ميقات صوم او صلاة ، ولا يدري احد كيف استطاعت حتىّ الآن ان تجمع بين الجشع وحبّ الله ، في قلب واحد ، فهي تعمل لجمع المال كأنها تعيش ابدا ، وتعمل لآخرتها كأنها تموت غدا. . .

* * * * *

وسكنّا في شقّة عمارة الحاجة (امّ سلامة) . . . وكان الايجار يقصم ظهورنا حقّا. . وعلى الاخصّ انّ مسئوليّات المنزل المستقلّ كانت تتضاعف يوما عن يوم ، واسعار المواد الضّرورية ترتفع وتتضاعف، هي الاخرى. . . .

ورغم انّ بعض الجيران انزلوا لجنة الايجارات لتخفيض ايجار الشّقق الاّ انّ الحاجة استطاعت بدهائها ان تقنع اللّجنة بعدم تخفيض الايجارات تخفيضا كبيرا وعلى الاخصّ انهّا لم تكن تسلّم الاّ ايصالا بنصف المبالغ ولم يثر احد من السّكان عليها ، فقد عمدت منذ الوهلة الاولى وبهدى من « غريزتها » التجارية وحاستها السّادسة النّفاذة الى انتقاء نوع من الزّبائن تحدس منذ الوهلة الاولى انّه لن يثير المتاعب. . .

واخيرا جاء الفرج . . . .

صدر قانون تخفيض ايجارات المساكن. . . وعندما سمعت الحاجة

(امّ سلامة) به وكانت قد بدأت تشكو العلل والاسقام في قدميها، سقطت مريضة.. واصيبت بشلل جزئي اقعدها عن الحركة....

فلم تعد قادرة على تسلّم الايجارات من السّكان ، وفي آخر الشّهر الماضي سلّمنا لنوّاب لجنة الايجارات الجديـدة اوّل مبلغ بعد التخفيض... وهو مبلغ لا يزيد عن ثلاثة دنانير ونصف بدلا من خمسة وعشرين دينارا...

بنت . . . جديدة

بالرّغم من انّ (ضياء) قد نبتت في اسرة متوسّطة الحال ، رقيقة ، الاّ انهّا لم تكن تفكّر في الصّعود الى طبقة ارفع مستوى من طبقتها عن طريق الزّواج لتحيا تلك الحياة المستنيمة الى الفراغ والدّعة والترف الذي يجعلها تحصل على كلّ ما تريد دون جهد مادام زوجها سيحقّق لها كلّ ماتصبو اليه من متع ومسرّات ، فهي وان كانت ذات جمال يدير الرّؤوس والاعناق الاّ انهّا لم تكن من ذلك الطّراز من الحالمات في الارتفاع عن مستوى الطّبقة التي نبتن فيها.

كانت ذكيّة العقل، مرهفة الشّعور، عاملة ، وعلى جانب كبير من حسن الاطّلاع، استطاعت حقّا ان تستثمر الحرّية التي وهبها لها اب واع ، أشعرها منذ ان شبّت عن الطّوق بأنها مسئوله عن تلك الحرّية ، محاسبة عليها امام نفسها قبل ان تكون محاسبة امامه عنها، فاضفى علبها جمال الخلق حسنا فوق حسنها واكتملت لديها الصّفات التي يتعشّقها كلّ متطلّع الى لفتاة الجميلة الخلقة والخلق والتي هي خير عوين وشريك في مسيرة العمر الطّويلة.

كانت امّها تجد انّ طريق ابنتها شاق وطويل ، فهي تعمل في

احدى الشركات التجارية منذ خمس سنوات، عملا متواصلا فيه جهد يضنيها وينهك جمالها، وكانت قلقة من اجل ابنتها التي يبدو انها من شدّة انهماكها في العمل لا تفكّر في نفسها، وانّ الشّباب لابدّ ان يزول وطاقات الانسان لابدّ ان تنضب ورقّة بشرة الوجه لابدّ ان تحتشد يوما عن يوم بالتجاعيد.

وكان آخر من تقدّموا لخطبتها شاب ثري، فرحت به الام فرحاً شديدا ، ووجدت انّ الفرصة سانحة كي تستريح الفتاة من عناء العمل ، وعلى الاخصّ ان الشّاب اشترط ان تترك ضياء عملها في الشّركة وتتفرّغ للبيت، وكانت الام تخشى ان ترفض ابنتها هذا الفتى النّادر وترى ان قبوله فرصة يجب ان تعضّ عليها بالنواجذ، ولكن يبدو انّ (ضياء) ترفض، وتصرّ على الرّفض، ولم يكن من الصّعب على الام ان تدرك انّ (ضياء) عالقة القلب بشاب رقيق الحال هو ابن خالتها الامر الذّي جعل الام تكاد تجنّ من هول المفاجأة . . فان (احمد) هذا، وان كان ابن اختها التي توفّت دون ان تفكّر هي في زيارة اولادها وزوجها لما استحكم بين الاختين من عداء وخصومة تعقّدت كثيرا من حياة الاخت المتوفاة واصبحت قطيعة ازليّة الاّ ان ذلك وحده لم يكن السّبب ، فـ « أحمد » شاب رقيق الحال ، ربمّا كانت حالة اسرته اكثر رقّة من حالة اسرتهم، وماذا يمكن ان تكون(ضياء) في كنفه غير فتاة تعسه لا يرقى حالها بعد الزّواج منه عن حالها قبله، فأين هو من (فوزي) الذي سيحقّق لها كلّ ما تصبو اليه الفتاة الجميلة من هناء ورغد ، فالجمال الأخاذ كجمال (ضياء) لا يمكن ان ينبت

ويترعرع الاّ في ظلّ الترف الذي يحميه ويصونه ويضفي عليه مزيدا من الحسن والالق والبهاء.

اجل . . ان ما سيدفعه (أحمد) ابن أختها من مهر بعد توفير شاق مضن، لا يمكن ان يساوي ثمن فستان سهرة يقتنيه لها (فوزي) ، وماقد يوفّره (أحمد) في خمس سنوات لكي يشتري سيّارة نصف عمر لا يّمكن ان يقاس بثمن قطع الغيار في سيّارات (فوزي) الثّلاث ، وايّ فتاة مجنونة ترفض فيلا على الشّاطيء تقبّل اعتابها موجات البحر وتركل الحرير والمجوهرات والسهرات والسّفريّات الى الخارج كلّ سنة غير ابنتها (ضياء).

لم تكن تظنّ، ، هذه الام الحريصة على سعادة ابنتها انّ نزق البنات الذي كان ابعد الصّفات عن (ضياء) ، لم تكن تظنّ انّه سوف يداهمها هكذا مرّة واحدة ، فانّ رفض مثل هذا العريس اللقطة نزق مجنون، من المؤلم انّه داهم ابنتها في لحظة مصيريّة حاسمة من عمرها.

ظلّت الام لا تكلّم (ضياء) ايّاما معدودات ، ولم يكن صمت الام غير ذلك الهدوء الذي يسبق العواصف وينذر بالزلازل كلّما اقترب موعد الجواب الحاسم الذي ينتظره (فوزى) ، الجواب الذّي تقرّر فيه الابنة أمرها ، وخفقات قلب الام تشتدّ كلّما تخيّلت انّ ابنتها العنودة ستجيب بالرّفض.

ويقينا . . فانّ الام لم تكره أختها الميّتة في حياتها كما كرهتها وهي في القبر، أهكذا تطاردها هذه الاخت حيّة وميّتة، وتنغّص عليها عيشها

حتىّ وهي في اللّحد. . .؟ أهكذا يأبى الزّمن الاّ ان يورث ابنها المتاعب التي ظلّت طابع حياة الشّقيقتين، وكانت تحسب انّ الموت قد انهاها؟

لو انّ (أحمد) كان في يسر من الحال ، ليس شرطا ان يكون في مثل ثراء(فوزي) لتناست كلّ شيء ، ولكن (أحمد) كان موظّفا بسيطا لا يكفي مرتّبه فتح بيت لو لم تعاونه (ضياء) وتواصل العمل بعد الزّواج حتىّ يستطيعا القيام بأعباء حياتها الجديدة.

لم تجد الام بدّا من الاستعانة بالاب فموعد الرّد الحاسم يقترب حثيثا ومن الجنون ان يكون الرّد لـ(فوزي) ، هو الرّفض، محال . . محال.

ولكن الاب بدا سلبيّا ، وخرجت الام من لدنه مزمجره غير مقتنعة ، ولم تنم ليلتها فقد كان موعد الرّد الذي ينتظره(فوزي) هو الغد، وعندما قابلت ابنتها التي عادت من السّينما وحيّتها (ضياء) تحيّة المساء، أغلظت الام لها القول وقالت لها وهي تصفّق باب غرفتها في وجهها:

ـلست امّك، ولست ابنتي اذا كان جوابك غدا هو (لا. .) انّك عنودة ، ولكنّك سترين من هو أعند منك.

وصعقت (ضياء) . . وصدى كلمات امّها يدوي في اذنيها، وعندما نظرت الى الباب المغلق والذي دخلته امّها منذ هنيهة، ذرفت عيناها دمعتين ،فقد احسّت انّ قلب امّها اصبح شديد الشّبه بهذا الباب المغلق.

* * * *

ركبتها روح استهانة شديدة، فقد تفجّرت في صدرها براكين اصرار وعناد لا يقاوم، فقد احسّت انهّا يجب ان تملك حياتها ، ان تتصرّف في مقاليد امورها.

ولم يكن ايثار (أحمد) على (فوزي) هو القضيّة كلّها ، ولكن القضيّة بالنسبة لها أصبحت اكثر عمقا من ذلك، وأكثر بعدا.

وعندما تحدّث اليها (أحمد) بالهاتف طالباً ضرورة مقابلتها على انفراد.. أعطته موعدا محدّدا بلا مهل، عند صديقة لها متزوّجة ، تتعاطف هي وزوجها مع قضيّتها فقد كان لديها الكثير مما تريد ان تقوله لـ (أحمد).

وعلى مسمع من صديقتها تلك وزوج الصّديقة ، كانت (ضياء) تتكلّم بحماس ....

كان امامها شيء اشبه ما يكون بالخطّة الواضحة، خطّة أكثر ابعادا وشمولا من كونها قضيّة شخصيّة ..

قالت لهم جميعا:

« اسمعوا .. ما الذي يمكن ان اكونه بعد ان اتزوّج من (فوزي)؟ ... امرأة مترفة ، حياتها ليل متواصل، سهرات ، وحفلات، اضواء وعطور، ثياب ونزهات، نوم وكسل في النهّار .. سيموت كلّ ما في داخلي من شعور بأنني فتاة عربيّة في مجتمع جديد يريد ان ينتصر على هزيمته ويحوّل النّكبة التي يعيشها الى انتفاضة مليئة بالتصميم والعزم والايمان بانّ العصر الذي نعيش فيه هو عصر العلم والحرّية والكفاءة التي يتساوى في ظلّها الرّجل بالمرأة.

ما الفرق بيني وبين ايّ امرأة في العصور الوسطى عندما أجد حياتي نوما وسهرا وفراغا ومتعة حسّية في طابور من (الجواري) يقتنيهن امير ، قد اكون الاثيرة لديه، او الاخيرة بين محظّياته، لا . . ليست هذه هي الحياة التي اريدها ، سيموت في داخلي كلّ شيء ، الاحساس بانّ وطني في حاجة اليّ ، في حاجة الى عملي، في حاجة الى مهامي واسهام كلّ فتاة من اجل بناء جيل ما بعد النّكبة . . . لنبني معا مجتمع الصّمود والانتصار ، مجتمع العمل المتواصل الذي لا فضل فيه الاّ للعمل والكفاءة والقدرة على اضاءة وجه الوطن بما نقدّمه جميعا من انتاج . . .

يملانا بالقوّة ويجعلنا قادرين على الوقوف في وجه العدوان المتربص بنا والذي لا يمكن ان نستهين به ونظن انّه بعيد عنّا . . . لن ننتظر حتىّ نصبح مشرّدين لاجئين . . . تسومنا القوّة سوء العذاب ، وتطردنا الى الصّحراء . . .

مشرّدين . . بل يجب ان نستعدّ منذ الآن للنصر، ولن ننتصر بالقوّة العسكريّة قبل ان ننتصر على انفسنا وعلى عوامل الضّعف والقهر والاستسلام الى حياة الدّعة والرّفاهية ، ومن هنا صمّمت على رفض هذه الزّيجة . . انهّا ليست الحياة التي اريدها . . وحتىّ لو أردتها فما الذي يريدني ان لا يسلبها الزّمن منيّ ، فالزّمن يتغيرّ ، وحياة القرون الوسطى تختفي معالمها من وجودنا كلّ يوم . ».

كانت كلماتها قويّة ، مؤمنة ، نابضة بالحياة، ولم يكن هناك ابدا ما يستطيع ان يقف في وجه ارادتها . . . .

فقد طغت كلماتها على ذلك الخور والضّعف الذي كاد يجعل (أحمد) يستسلم ويهيب بها ان تنزل على ارادة امّها منسحبا من المعركة ، قنوعا . . .

لقد عقدا العزم على اللقاء ولكن . . بعد ان يقطعا الطّريق لطّويل، وطريق العمل الشّاق ، الذّي يقتسما بعده حياتها مناصفة . . بكلّ حلوها ومرّها . . . فيبنيان معا كلّ لبنة في البيت بجهاد مشترك وصبر وعناد . . .



المجموعة الرّابعة

○○ القمر

○○ الزّائرة . . ملاك



هذه مجموعة من القصص القصيرة هي أقرب الى «الشّعر» و «المسرحيّة» منها الى القصص القصيرة المألوفة، والجديد فيها هو انهّا تتكوّن من «نموذجين» اثنين فقط... رجل وامرأة حوارها يصوّر الوقائع والاحداث على لسانيهما في بساطة اشبه ما تكون ببساطة الدّموع وهي تنتثر من المآقي ..

انّ كلّ قصّة من هذه القصص بناء قائم بذاته يختلف عن مثيله في القصّة الاخرى، وهو أشبه ما يكون بالتزاوج بين المشهد او المسمع في التمثيلية والمسرحية وبين القصة القصيرة المألوفة.

وما ارجوه ان اكون قد وفّقت فيها وان تحوز رضى القارىء..

القمر

(المشهد أو المسمع: سطوح شقّة في عماره.
شخصا القصّة: رباب ونبيل.
موسيقى خالمة تسمع كما لو كانت
آتية من بعيد).

رباب ـ يا له من منظر ساحر يا نبيل، منظر غروب الشّمس، انظر الى السّماء وقد اصطبغت بحمرة الشّفق والشّمس التي كانت جبّارة النهار، انظر اليها الآن، انهّا تذوب . . تنتحر، وتسكب دمها على قطعان السّحب الشّاردة كأنها تتوسّل اليها ان تتركها تموت في هدوء. ليتني كنت اجيد فنّ التصوير، أو كنت رسّامة، اذن لما تركت هذا المنظر السّاحر لغروب الشّمس يتبدد ويبتلعه الظّلام.

نبيل (شارد لا يردّ)

رباب ـ نبيل؟ مالك هكذا شارد؟ في أي فلك تسبح؟

نبيل (وقد انتشله صوتها من شروده)ـ ها؟ نعم . . انت تنظرين الى غروب الشّمس وانا انظر الى غروب آخر داخل نفسي ، غروب لا أدري مداه .

رباب ـ لا يانبيل، لا تتشاءم ، انت في فجر شبابك، وشتّان بين غروب الشّمس وفجر عمرك النّظر . . النديّ .

نبيل ـ يا له من شباب، ليتني لا أعرفه، ليتني لم أعشه .

رباب ـ انت تعقّد الامور.

نبيل ـ أنا آسف يا رباب، ماكان يجب ان احّملك انت وعمّتي هذه المتاعب التي أعانيها . . **رباب (باستغراب)** ـ تحمّلنا؟ ما كان يجب ان تقول هذا الكلام، ايّ متاعب هذه التي تحملناها عنك، العكس هو الصّحيح يا نبيل، لقد كنّا ـ عمّتك وأنا ـ وحيدتين، وجئت انت لتؤنس وحدتنا، وتملأ بيتنا بعبير الرّجل (ثمّ وهي تضحك) هل تعرف يا نبيل، منذ ان مات ابي وحّمام بيتنا مشتاق لرائحة صابون الحلاقة(في جدّ) لا يانبيل، يجب ان تحمد الله على انّ الأمور انتهت عند هذا الحدّ ، ويجب ان تحمد الله أكثر على انّه ليس بينك وبين هذه الحيّة الرّقطاء طفل والاّ لتعقدت الامور.

نبيل ـ لم أكن اتصوّر ان تقدم على هجري ، فقد اغدقت عليها كلّ حناني ولم اكن اعرف انّ في النّساء مثلها، جحودات . .

رباب ـ نبيل، انت مخطىء، ليس كلّ النّساء ، لا يمكن ان تأخذ بنات جنسنا كلّهن بذنبها .

نبيل ـ القصد. . لقد انتهينا والسّلام، ولا يفيدنا ان نأسى على مافات.

رباب ـ هذا هو عشمي فيك، لقد كنت تعيش مع امرأة لها سابق خبرة بالرّجال. . . لم يتفتّح قلبها لك، وانتهت لذّتها ان تنتقل من رجل الى رجل، ووجدتك شيئا آخر فجرّبت الزّواج بك، وانتهت التجربة بالنسبة لها فارتدّت الى طبيعتها الاصلية.

نبيل ـ كنت اعتقد انها تابت وأنني المرفأ الاخير في حياة سفينة ضالة.

رباب ـ كلاّ يا نبيل، لم تكن كذلك وكنت انا اتعذّب من أجلك، ارى شبابك ونظارة عمرك يسفكان على مذبح لئيم ومعبد كافر، وهوى غير متكافيء ولكنّني كنت اسكت واتعذّب وحدي.

نبيل ـ تتعذّبين؟ تتعذّبين وحدك.

رباب ـ وكنت اشعر حين تلجأ الينا في بعض الأحيان لتقضي لك عمّتك وأنا الحاجات الصّغيرة التي تنقصك، او تجلس معنا لنقضي وقتا لطيفا، بأن هذا البيت بيتنا هو مأواك، ودنياك التي تتفيّأ بظلّها.

نبيل ـ كيف يمكن ان انسى؟ لقد كنت اجد عندكما تلك السّكينة التي لاحدّ لها، وأشعر ـ بالفعل ـ كأنني قادم من سفر طويل، والشّمس تلهب رأسي، والعرق يتصبّب من جسدي فأستريح، واشعر بنسمات هواء لطيف تجفّف عن جسدي غزارة العرق.

رباب ـ وتغيب عناشهوراً، وربّما لم تكن تحسّ بقلب يعيش على

تلك السّاعات القليلة التي كنت تقضيها معنا. لقد كنت اتذكر كلّ لحظة فيها، اعيشها بخلجاتي وأنفاسي وأحسّ بالرؤى في داخلي تجسّدها، وتجمع هنيهاتها اللّطيفة النّشوى لتحوّلها الى عالم آخر لا يستطيع ان يشاهده احد سواي، ولا استطيع ان اشاهده الاّ وأنا مغمضة، غائبة عن الوعي، وحدي، عندما اطفىء النّور وتعتقد اميّ انّني نمت.. ولم أكن نائمة.. كنت مسهده، وكنت انت... سهدي، وكنت يقظة يؤرقني الوجد، وكنت انت ... وجدي، وأبكي، حتىّ تبلّل دموعي وسادتي، ويفيض بي الوجد، فأخرج من غرفتي في هدأة اللّيل الى الشّرفة وانظر الى النّجوم بعينين مليئتين بالدّموع فيخيّل اليّ وضوء النّجوم يتلألأ في مدامعي بأن كلّ نجمة قد تحوّلت الى قطرة من دموعي، وارفع رأسي الى السّماء، واهتف من أعماقي «يارب.. لماذا حكمت عليّ أن أهوى من لا يحسّ بي ولا يشعر بوجودي؟ ياربّ.. انّني ضائعة، وهو ضائع، مثلي... يحسّ بمن لا تحبّه ولا تشعر بوجوده.. اعطها قلبي واعطني قلبها أو خلّصني من هذا التشرّد العاطفي الذي أعيش فيه».

نبيل (كمن باغتته المفاجأة) - رباب؟ رباب.. ؟ أحقًا ما تقولين **(ثمّ بنحوٍ بالغ)** رباب... اصغ اليّ، تعالي، اقتربي...

رباب**(تنفجر بغتة باكية)**

نبيل-هل تبكين؟ لا ياربا ب.. لاتبك، بل.. بل يجب ان تفرحي، لقد فتحت امامي افقا كان مغلقا، وكلماتك يا رباب نبّهتني الى اشياء كنت احسّها ولكنّني كنت معصوب العينين، معصوب

الاحساس. اشياء كثيرة كنت احسّ بها ولكنّني لم أكن ادقّق النظّر اليها. اجل.. كنت اشعر بفرحة غامرة وانا معك، وكان الوقت يسرقني.. يختلسني، وتمرّ السّاعات كأنها ثوان، وكنت اقرأ في عينيك معان لم اكن اطيل النّظر فيها، وكنت تهلّلين عندما ترينني وتفرحين من أعمق اعماق قلبك.

رباب ـ افرح؟ يالها من كلمة صغيرة، اصغر حجما من هذا الذّي احسّه في قلبي عندما أراك.

نبيل ـ يا حبيبتي.. اجل.. استطيع الآن ان اتذكّر (كمن يجترّ ذكرياته) ذات يوم، هممممم. جئت الى هنا وانت فوق السّطوح، في هذا المكان مع رفيقات لك في العمل على ما أظنّ، وفتحت امّك الباب ولكنّها لم تقلّ لك. انّني جئت وبعد نصف ساعة ناديتها انت واجابتك، ثمّ قالت لك انّني هنا فما كان منك الاّ ان هرولت مسرعة، وكدت تقعين، ونظرت اليّ وفي عينيك شهقة فرح، وكدت احسّ انّك ستقفزين لتطوّقيني، ونظرت الى امّك بعتاب وقلت لها «لماذا لم تقولي لي انّ نبيلا قد جاء؟»، وودعت صديقاتك بسرعة، ولّما عاتبتك امّك على تخلصك من صديقاتك سريعا قلت لها وجسمك كلّه ينتفض نشوة« لايهمّ يا امي لا يهم فقد جاء نبيل».

رباب ـ يومها يا نبيل لم تلمح مشهدا مؤلما فقد شعرت أمي بأنني.... (ترتبك) بأنني ....

نبيل ـ بأنك ماذا؟ أكملي..

رباب ـ (لاتجيب)

نبيل - لا تريدين ان تقولي؟ حسنا. . سأقولها نيابة عنك، شعرت أمّك بأنك تحبينّني.

رباب - (في حياء) نبيل . . أخجلتني.

نبيل - قولي. . وماذا بعد؟

رباب - المشهدالمؤلموالمضحكمعاًأنامّي طفرت، لحظتهامن عينيها دمعتان، وظننت انت انهّا مصابة بالزّكام فنصحتها باستعمال قطرة معيّنة للأنف.

(يضحكان معاً)

. نبيل-كنت انا الذي اعاني من زكام حقيقي، زكام في قلبي الذي لم يستطيع ان يستنشق اريج الحبّ وهو يتضرّع من حوله.

رباب - كنت معذورا يا نبيل.

نبيل - لأنني كنت اعيش داخل اكذوبة.

رباب - لا تستطيع ان تتصوّر كم انا سعيدة الآن وانت معنا، اشعر كأنني ولدت من جديد. . كلّ لحظة من لحظات يومي تعبر منتشية، دقائقها اجراس. . ساعاتها اعراس . . وحين انظر اليك تشرَب عيناي ملامحك كلّها وتكاد ذِراعاي ان تطيرا لتطوّقاك، واغمض عيناي واشاهد نفسي واهدابي مسبلة وانفاسي تتهدّج بانني الجأ اليك وتسترخي ملامح وجهي كلّها فوق عنقك، وأخاف. . فجأة، أخاف.

نبيل - وممّ تخافين؟

رباب ـ ان تضيع منيّ بعد ان وجدتك، فيتمسّح وجهي فوق عنقك واكاد اقول لك «خذني . . لا تتركني، انت شبابي وحياتي . . انت ايّامي ودقّات قلبي . . انت . . . (في تردّد همس) حبيبي .

نبيل ـ (في حنّو بالغ وبصورة لا ارادية تقريبا) رباب . . يا حبيبتي .

رباب ـ وأفيق الى نفسي واصحو على الحقيقة المؤلمة ليقول لي عقلي«انه لا يحسّ بك »

نبيل ـ (كمن يدافع عن نفسه) كلاّ . . كلاّ يارباب . . لقد كنت احسّ بك ولكنّني كنت فاقد الذّاكرة، وجاءت صدمة حياتي الزّوجية لتحدث في اعماقي رجّة اصطدم معها رأسي، فعادت اليه ذاكرته .

رباب ـ أو لم تكن تشعر بي طوال هذا العذاب

نبيل ـ (بنفس الحرارة) بل . . كنت اشعر، ولكنّني (يرتبك ويرتجّ عليه) ولكنّني كنت اخشى ان يكون شعورك قد تجسّد لي خطأ وان يكون ماتبدينه لي مجرّد شفقة فلم اجرأ على مصارحتك، ولكنّني الآن شيء آخر . . شيء آخر يا حبيبتي . . لقد بدأت اشعر منذ ان قلت لي قبل قليل بأن ثمّة فرق بين غروب الشّمس وفجر عمرك .

رباب ـ (كمن تتنبّه الى شيء) الله يا نبيل . . لقد حلّ علينا الليل ونحن واقفان نتحدّث .

نبيل (يتنبّه هو الآخر الى حلول الليل) ـ ليل؟ نعم . . لقد حلّ علينا الليل وذهبت الشّمس . . شاهدنا مصرعها عند الغروب وهي تصبغ بدمها قطعان السّحب الشاردة، ولكنّها تركت لنا القمر،

انظري الى القمر. . لقد تركته الشّمس لنا نجوانا بنور فضّي يضيء ولا يحرق.

رباب- ترى . . من اكون بالنسبة لك بعد ان صارحتك. . ؟ هل انا نور قمرك الجديد. . ؟

نبيل - (في انتشاء ومرح) انتَ؟ انت القمر

الزّائــرة. . ملاك

(المشهد أو المسمع: غرفة مريض في
مستشفى بعدن.
شخصا القصّة: أحمد وفوزية)

أحمد ـ فوزيّة. . هاانذا اخيراً قد جئت، لماذا جئت متأخرة؟ لماذا لم تتركيني أعاني من هذه الأحزان التي كنت أكابدها قبل حضورك؟ لقد نسيت جراحي وآلامي، والحادث الذي نجوت منه بأعجوبة ولم اتذكّر سوى شيء واحد. . شيء واحد فقط هو انّك لم تحضري. وكنت اتصفّح كلّ الوجوه التي تأتي لزيارتي، وابحث عن وجهك. . أبحث عن عينيك الجميلتين اللتين اضاءتا قلبي ونوّرتا الوجود كلّه من حولي فقد كنت في اشدّ الحاجة اليهما الآن. . أكثر من أي وقت مضى، ولكنّك لم تأت. . . . . أسلمتني للظنون. . لأول مرّة تمزّقني الظّنون.

فوزيّة ـ أحمد، أقسم لك. . ليس هناك ما هو أغلى واعزّ منك بأنني لم أعلم بالحادث الاّ منذ هنيهات، فجمعت شتات نفسي وجئت

على عجل، فقد كنت خارج المدينة، في بيت خالي الرّيفي فقد رزق ابن خالي بطفلة ووجدتها فرصة ما دمت في إجازة من عملي كي أغيّر الجوّ الخانق الذي نعيش تحت لفحة القائض. أنّ عدن لا تطاق في الصّيف. هذا الصّيف بالذات جائر الحرارة، ثائر، أنفاسه نار، يخيّل اليّ فيه أنّ النّسمات الرّقاق التي تزورنا ليلاً باردة لا تقبل علينا إلاّ وقد امتلأت بزفرات اللّهب، ولو انّني مكثت هناك إلى اليوم فلربما لن أعلم بشيء، وكان عذاب انتظارك لي سيطول حقّاً وربمّا ظننت بي الظّنون. ألم تسأل عنيّ أحدى قريباتك اللائي زرنك هنا في المستشفى؟ ألم تقل لك احداهنّ بأنني خارج المدينة؟

أحمد ـ لم اسأل فقد كنت في حال لا تسمح لي بالسّؤال.. خشيت أن تفضح عيناي أشواقي إليك، أن يروك وأنا أتنهّدك، وانا أتنفسّك، وانت في خيالي، وفي كياني، ومن جهة اخرى كنت أخاف...

فوزيّة ـ تخاف؟ تخاف ماذا؟

أحمد ـ أخاف أشياء كثيرة مجهولة ربمّا تجسّدت لي وأنا أعاني من الآمي ووحدتي فلم اشأ أن اتعجّلها وفضّلت الانتظار والتريّث على السّؤال عنك. ربمّا كانت مجرّد مخاوف ينسجها المرض في نفوس المرضى.. بل، هي كذلك بعد أن رأيتك الآن، إلاّ انهّا لم تخل من ذلك الشّعور باللذّة الخطرة... لذّة أن يكون الانسان ضحيّة حبّ او تضحية، واحساسه بأنه مظلوم، وأنّ الظّلم الذي يلقاه ويقاسيه ليس سوى نتيجة لموقف اريحيّ.. أو عمل نبيل كريم.

فوزيّة ـ ولكنّك جسّدت الأمور يا أحمد أكثر مما يجب، وهو ما جعلني أنا ، لا أنت الضّحية في هذا الذي تتصوّره، والفرق بيننا هو انّك تشعر بلذة الاحساس بالاضطهاد بينما، وأنا المضطهدة الحقيقية، وأبدو وكأنني مخدّرة لا أشعر بالتعذيب ولا أعلم بشيء. .

أحمد ـ فوزية، ارجوك، لا تلومينني، أنّني أحبك، وحبّي لك هو نقطة الضّعف فيّ، لم أكن ضعيفاً الّا حيالك انت. . حيال عواطفي نحوك، انهّا شيء. . . شيء يضايقني في بعض الأحيان.

فوزية: لا عليك (ثمّ وهي تضحك) انني اشعر الان بالاطمئنان على نفسي معك.

احمد: (يشاركها الضحك ويواصل) لقد جئت اخيراً فأنتهت كل متاعبي، حقاً اذا حضرت الملائكه ذهبت الشياطين. . شياطين الوهم والوساوس.

فوزيّة ـ أنّك لم تقل لي حتىّ الآن كيف جرى الحادث.

أحمد ـ ركبت سيارة أجرة لأن سيارتي في «الجراج» للاصلاح، وكانت سيارة الأجرة بلا فرامل، ولم يتنبّه السّائق إلى أنهّا بلا فرامل إلّا بعد أن صعد بها على ظهر سيّارة أخرى أمامه، فانقلبت، ومات السّائق ونجوت أنا بأعجوبة، ولكن أصابتي تركّزت في ساقي وعيني اليسرى، غير أن الطّبيب طمأنني إلى أن شبكة العين سليمة، وأن بعض الدّماء تسرّبت فحجبت عنيّ الرّوية ولكن ذلك إلى حين. . . وكذلك الحال بالنسبة لعظم السّاق. . ما هي إلاّ أيّام من وضعها في الجبس ثم تعود إلى حالتها الطّبيعية.

فوزيّة ـ لا تستطيع أن تتصوّر كيف زلزلني النبأ . . هدّ كياني كله، شعرت وقتها بأنني المسئولة بعد تلك الجفوة التي صارت بيننا، والتي جعلتني أقدم على الذهاب إلى بيت خالي الرّيفي دون أن اعلمك بذلك، فلقد قصدت أن أهرب من متاعبي . . من آلامي . . من شعوري بأنني أخاصمك. كانت نار جفوتك في قلبي أشدّ اتقاداً من نار الحرّ، ولكنّني ما أن أتيت عائدة حتىّ داهمني النبأ، وباغتني . . . فأوقف نبض قلبي، فهرعت اليك وأنا أشعر بأن هذا الذي تضمّه ضلوعي ليس قلباً ولكنّه قنبلة وشيكة الانفجار، ورغم انهّم طمأنوني إلى أن الاصابة ليست خطيرة إلاّ أنّني لم أطمئن، ولم استطع أن اهدأ، ولكنّني الآن، وبعد أن رأيتك خفّت حدّة آلامي نوعاً ما وشعرت بشيء من الاطمئنان.

أحمد ـ لم يكن الذّنب ذنبي فيما حدث بيننا.

فوزيّة ـ وليس هو ذنبي أنا أيضاً، أنّه ذنب الظّروف وحدها، ولقد كنت أكابد هذه الظّروف، أحاول أن أتغلّب عليها، وكان يجب أن تقف معي وأن تسندني لا أن تثور عليّ وتجعلني أحارب في جبهتين، جبهة أمّي وأهلي، وجبهة عدم إصطبارك وعنادك في بعض الأحيان.

أحمد . أنّني أحبّك، ما في ذلك شكّ، وأحبك الآن أكثر من أي وقت مضى، بل لعلّني لم أشعر بهذا الحبّ بملأ وجودي كلّه ويجري في دمي إلاّ في هذه الظّروف الكئيبة المكربة . . . فالدماء تتدفق في عروقنا نقّية، حارة، ولكنّنا لا نشعر بها إلاّ متى جرحنا، وانبثقت من جراحنا تلك الدّماء، عندئذ، وعندئذ فقط تداهمنا الفجيعة ونخاف . . .

وهذا بالضّبط، شعوري بعد هذا الحادث . . . حادث الصّدام.

أحمد ـ أنت أذن غير غاضبة منيّ؟
فوزيّة ـ لا يمكن أن أغضب، أنّني أشعر الآن بأن غضبي كان على غير حقّ، وأنّ جفوتك لي ليس لها من سبب سوى أ نّك . . تحبّني.

أحمد ـ (في حنوّ بالغ) ـ أنّني لا أدري متى تنطوي هذه الأيام وأسرع اليك . . . نعقد قراننا لنتحدّى كلّ الظّروف ونهزأ من كلّ المخاوف، نقيم من حياتنا مقياساً لأرقى العلاقات الزّوجية القائمة على الحبّ الصّادق، والحبّ المتين . . . الذي يجعل لحياتنا وزناً وقيمة وثمناً.

فوزيّة ـ أنا لك يا أحمد، بكلّ قلبي وكياني، لن افرّط فيك. لقد قلت لأمي قبل أن أجيء لزيارتك كلّ شيء، قلت لها أنّني أبداً لا يمكن أن أتزّوج ذلك الذي تريده زوجاً لي، وأنّ الغنى وحده ليس كافياً لأقامة علاقات زوجية متينة، وأنّ نظرتها إلى سعادتي يجب أن لا تكون من زاويتها هي بل من زاويتي أنا . . . انا صاحبة الشّأن، وقد نجحت فعلاً في أن أجعلها تقتنع بأن الحياة التي أريدها واتطلّع إليها ليست أن أصبح زوجا لشاب مترف، وان تكون أيّامي فراغ وكسل، سهرات ورحلات، وثياب ومجوهرات كأنني غانية اقتناها . . . وأنّ أملي ليس هو الانتقال من طبقتي إلى طبقة أخرى بوسيلة بدائية تنقصها أخلاقيات كثيرة. انّ كل شيء أريد أن أحقّقه بكفاحي وكفاحك، بجهدينا معاً، بالايمان، بالمعاناة، بالعمل. أنّ مذاقاً جديداً يجب أن يكون لحياتنا نظراتنا إلى الاشياء يجب أن تتغيّر، تطلّعاتنا . . أشواقنا . . . أنّنا لا نعيش تلك الظّروف المطمئنّة التي تجعلنا مستنيمين إلى قبضة الأوهام، جيلنا ـ نساؤ نا أيضاً ـ عليهن

مسئولية تبدأ من خلال أنفسهن فاذا لم يدركن منذ الآن عظم هذه المسئولية هان عليهن كلّ شيء فينشأ جيل رخو مستسلم أمام عدوّ لأرقى متوحّش ضار لا يرحم، جيل لا يملك من أمره شيء لأن أمهاته عوّدنه بسلوكهنّ على الدّعة والشّعور بالامان حتّى في أحلك الظروف فيضحّي من أجل هذا الأمان الكاذب بأقدس المقدّسات.. انّ ما حدث للقدس والنّيل سيحدث غداً، هنا أيضاً، في عدن.

أحمد (بذهول) ـ فوزيّة.. أهذا أنت حقّاً أهذه كلماتك؟ أهذه أحاسيسك؟

فوزية ـ نعم يا أحمد، هذه أنا، أنهّا ليست فورة حماس وانفعال هذه التي أحسّها، انّ الحادث الصّغير الذي جرى لك أضاء أمامي الكثير من الحقائق.... فأصبح حبّي لك ليس تشبّثاً برغبة شخصيّة ولكنّه تشبّث بقيم أعلى، كنت أشعر بها مجرد شعور، وأكابدها في أعماقي دون أن تتضّح لي معالم الرّؤية الحقيقية إلاّ بعد أن سال... دم.

أحمد ـ وأمك؟ ماذا قالت لك...؟

فوزيّة ـ أعذر أمّي يا أحمد فقد كانت ككلّ أم تبحث عن ما يسعد أبنتها بطريقتها الخاصة. هي تعتقد بأنني لو تزّوجت (منير) وهو غنيّ موسر، فان ذلك يكفيني أماناً وضماناً لحياتي. أنهّا أم تنظر إلى أبعد من تلك الحدود الصّغيرة التي ترى كلّ أم من خلالها سعادة ابنتها. انهّا لم تكن ضدّك كشخص بالقدر الذي كانت تريد فيه سعادتي... كمبدأ.

أحمد ـ أعرف ذلك، وأنا لا ألومها أبداً، أنهّا نموذج في جيل. إنّ

أمّي مثلها أيضاً فيما يتعلّق بزواج شقيقاتي.

فوزيّة (وهي تضحك) - يعني... هل أستطيع أن أضمن منذ الآن بأنه لن تكون بيننا مشكلة أسمها... حماتك؟

أحمد (يقهقه ضاحكاً من أعماقه) - من هذه الناحية.. اُطمئنيّ.

فوزيّة - وآلان.. قل لي.. هل زالت مخاوفك؟

أحمد - لم تعد هناك ايّة مخاوف.. تأكدي، لقد وجدت فيك أكثر مما كنت أتصوّر واكتشفت فيك أشياء كثيرة مضيئة تجعلني أتشبث بك أكثر، فأكثر،.... عيناك.. نجمتان، كانتا تضيئان قلبي وحده، فأصبحتا تضيئان وتشيعان النّور في حياتي كلّها. قلبك... كان ينبوع حنان يملأ قلبي ريّاً، فأصبح الينبوع نهراً دافقاً يشيع في حياتي كلّها أخضرارا وربيعاً دائمًا. كنت أحبّ فيك الأنثى، جمالاً يدير الأعناق، وسحرا طاغيا يملك زمام القلوب، فأحببت فيك الرّوح والفكر والجنان.. التقى فيك ذلك الجمال الذي يدير الأعناق بالجمال الذي يضيء الأعماق.. السّجايا الجميلة بالملامح الجميلة.. أحبّك..

فوزيّة (تضحك من أعماقها) - وأنا أيضاً أحبّك، فأنت.. أنت وحدك الذي جعلني أنظر إلى الحياة هذه النّظرة، وسوف أكون إلى جوارك دائمًا، سأزورك كلّ يوم.. واعيش معك بوجداني وكياني كلّه اذا ما انتهت زياراتي... وعندما يمن الله عليك بالشفاء سنخرج معاً إلى الحياة، ايدينا متشابكة، وقلوبنا متشابكة، وطريقنا واحد.

(صوت في المستشفى يهتف: ميعاد الزّيارات انتهى)

المجموعة الخامسة

OO مقلب

OO ضعيفة جداً



مقلب

لم اكن قد رايتها، ولكنني فقط سمعت صوتها اكثر من مرّة من خلال اسلاك الهاتف. . .

تموجاته عذبة، كلّ نبرة فيه تغنيّ ولا تتكلّم. . . ومنذ الوهلة الاولى احسست ان نبضته تأسر سمعي. . ومن اجل ذلك جرفني . . . شدّني اليه بشكل لا يقاوم وشعرت به يضيء اعماقي كأنه برق داخلي.

حروف صوتها وهج. . . معانيه. . . شذى، لونه. . . اخضرار، عباراته. . . ازهار.

خيّل اليّ انّني اسمع صوتا له رائحة، تعبق عطرا. . تتضوّع أريجا، ولم اتمالك نفسي وانا اسمع صوتها من خلال الهاتف في الشّركة التي تتعامل معنا وتتصل هي بي من من خلال هذا التعامل مع مؤسستنا التجارية، لم اتمالك نفسي ذات يوم فقلت لها:

- اسمعي يا آنسة، او ياسيّدة، لست ادري فأنا لا اعرفك ولكنّني اسمع صوتك كلّ يوم. . اريد ان اقول لك شيئا، لست ادري هل تغضبين له ام تسرّين على ايّ حال ليس هذا الذي سأقوله لك

غزلا. . . . تأكدي، وانما هي الحقيقة.

قلت بنفس الصّوت الذي يشيع حنانه الدّفء في القلوب:

ـ قل، فلن اغضب منك تأكد. . .

قلت في تردّد، والكلمات تترنّح ثملة على شفتي:

ـ صوتك. . تمثال للعذوبة ينتصب في الخيال. . .

تضاحكت وهي تقول:

ـ أهذا كلّ ما هناك؟

قلت ـ مستطردا ـ :

ـ فيه صفاء ووداعة ، انوثة مفعمة بالطّهر والملائكة، فيها نفحة من الطّفولة تتماوج كأنها غرغرة ضوء مرح. . . لونه بنفسجيّ. . . رائحته بنفسجية. . . عباراته، باقات بنفسج.

ضحكت، وضحكت كثيرا، وغرقت مشاعري كلّها في ضحكتها، فهناك شيء ما في صوتها يتفتّح له الفؤاد.

كانت ضحكتها تلك. . غبار من الغبطة ، يثور في الوجدان كما يثور الغبار لولا ان شذارته قهقهات منغّمة تغدق على مسمعي حبورا لا نهاية له.

في الواقع ، شجعتني ضحكتها تلك فقلت لها:

ـ اسمعي، اريد ان أراك، يبدو لي أنه من غير المعقول ان اسمع صوتك كلّ يوم دون ان اعرف تقاطيع وجهك، ذلك شيء لا يطاق،

اريد ان القي عليك نظرة واحدة. . . نظرة واحدة فحسب، وانصرف، ولست اريد شيئا آخر.

قالت :

ـ انت اذن لا تعرفني.

قلت :

ـ ولم تقع عليك انظاري قطّ.

قالت باطمئنان:

ـ ومع ذلك فأنا اعرفك تمام المعرفة.

ذهلت، وضحكت هي. . .

صوتها . . . صوتها نبع صفاء مقطّر في النبرة الآسرة، الباهرة. . العذبة التي تتجاوز السّمع الى القلب دفقة سخيّة من العذوبة والاشجاء يتفتح لها السّمع كما تتفتّح براعم الزّهرة عندما تلامسها قطرات النّدى في الاطلالة الأولى للبكور. . كما تلامس الشّفاه الظمآى ينبوع ماء.

وكدت لا اصدّق وهي تحدّد لي موعدا لألتقطها بعد العصر، وعند انتهاء عملها من الشّركة، وألهب خيالي انها تعرفني كما تقول ، وانا اجهلها. . اجهلها تماما.

وبينما كنت الفّ بسيارتي حول المكان اذا بي اصادف عائقا مذهلا. . .

انهّا ابنة اختي التي كانت تدرس في الخارج وغابت عن ارض

الوطن ثلاث سنوات ثم عادت منذ اسبوع واحد فقط دون ان اذهب لزيارتها رغم عتاب اختي الذي لم يزحزح كسلي عن الذهاب لزيارتهم.

امتعضت عندما رأيتها . . .ولكنّني اخفيت امتعاضي لهذا الطارىء المفسد للقاء المنتظر لتلك المجهولة الأسرة، فحييتها بحرارة وطفقت هي تحدّثني، .

وفي بادىء الأمر اصغيت اليها بغير اهتمام، ولكنّني . . . . انتفضت منتبها وانا اهتف في اعماقي :

«مستحيل . . هذا شيء لا يصدّق»

ولكن الصّوت ،ليس غريبا على سمعي فقلت لها وهي تختلس الّي بين الفينة والاخرى نظرات ماكرة:

ـ نوال . . اتكونين انت؟

ضحكت من كلّ قلبها وقالت لي ودموعها تكاد تشرق من عينيها الضّاحكتين:

ـ الم اقل لك أنني اعرفك يا خالي العزيز. . . ؟ اهكذا تكسل عن زيارتنا؟يا الله . .خذني الى البيت فقد تأخر باص الشّركة عليّ. . .

ضعيفه جدّا

في كلّ فصل من الفصول الدّراسية كانت تعترضني مشكلة. . هي كيف اتخلص من الدّقائق التي اقف فيها امام ابي وهو يطالع نتيجتي الدّراسية.

ولم يكن ما يخيفني هو انّني كسولة او متقاعسة في واجباتي المدرسيّة، ولكّن. . ما كان يخيفني حقاً هو انّني دائما، وبصورة منتظمة اعجز في مادة واحدة لا تتغيرّ. . مادة اكرهها من كلّ قلبي وتبدو لي دائما وابدا كالكابوس المخيف المقضّ للمضاجع الهانئة، تلك هي مادة: الحساب.

امام هذه المادة كانت الحروف الحمراء المخيفة. . المقيتة تجلّل الورقة الفصليّة وتبرز كأنها جمرات او اشارة حمراء للخطر تتجمّع متوهّجة. . تشير الى انّني (عاجزة) . . .

كلمة قبيحة، حاولت ان اتخلّص منها بكلّ السّبل والوسائل فلم انجح. . . جاملتها. . . تقرّبت اليها. . . منحت ثقل دمّها واحتمالا كبيرين ولكنّها كانت لا تعرف المجاملة. . . هذه الارقام اللعينة قبيحة. . مشاكسة. . لا تريد منيّ ان اخطىء ولو في نقطة صغيرة فيها. . فترتعد. . وتتراقص حروفها المرقّمة وتصيبني بالدّوار. . بالاضطراب، وتزلزل أمن نفسي زلزالا مخيفاً. . .

انهّا ليست كمادة التاريخ الجميلة التي تتيح لخيالي ان يتصوّر ، ويشطح في التصورات ، فتكافئني مدرّسة التاريخ بعلامات اضافية متفوّقة على هذا التصوّر والخيال. . . وهي ليست كمادة الانشاء التي احبها فكانت فيها واسهب واطنب دون ان اخشى الخطأ. . . فأجد من مدرّسة المادة حماسا وتشجيعا على خيالي الواسع وافقي الفسيح الممتدّ . .

وفي كلّ فصل. . وبعد ان يقرأ ابي النتيجة ، يضربني. . يؤنبني على عجزي في مادة الحساب يوجّه اليّ الفاظا تمزّق مشاعري الرّقيقة. . . فأجلس الى مادة الحساب للمذاكرة وانا جريحة. . . .

معذبة. . ارقامها سكاكين تمزّق مشاعري تمزيقا.

وفي آخر مرّة هم ابي بضربي عندما تسلّم نتيجة الفصل الرّابع الابتدائي. . . عندما تراقصت امام عويناته الزّرقاء تلك الحروف الحمراء المزعجة: عاجزة. . في مادة الحساب. . .

ورغم انّني نجحت وانتقلت من الفصل الرّابع الابتدائي الى صفّ الاول المتوسط الاّ ان نجاحي لم يشفع لي عنده مادمت لا ازال عاجزة في مادة الحساب.

وزاد من المي وتعذيبي انهّم اضافوا في المدرسة الى مادة الحساب مادتين اساسيتين هي (الجبر) و(الهندسة). . وكدت اصاب بالجنون وخيّل اليّ ان مادة الحساب. . هذه العقربة قد حملت وولدت عقربتين اثنتين. . . الجبر والهندسة. . .

واضيف الى عجزي في مادة الحساب . . عجزي ايضا في مادة

الجبر ومادة الهندسة . . . وجاءت نتيجة الفصل الأول للصّف الجديد الذي انتقلت اليه وعليها هذه العلامة الحمراء المخيفة . .

الرّياضيات : ضعيفة جدّا

ورجعت الى البيت وانا ذليلة صاغرة فان أوّل عمل سيقوم به ابي هو ان يرى النتيجة ويرى(ضعيفة جدّا) في مادة الرّياضيات . . .

اجل . . انّني احبّ الرّياضة ولكنّني لا احب الرّياضيات . . احبّ رياضة الجسم واتفوّق فيها ولطالما ضبطني ابي وانا اقفز في (حوش) منزلنا مع اخواني واتفوّق عليهم في لعبة كرة القدم فنهرني مرارا . . .

ولكنّني اكره رياضة العقل . . مادة الرّياضيات المخيفة . . .

وجاء ابي فكان اوّل سؤال وجّهه الى امّي : « اين سميرة . . . اريد ان ارى نتيجتها المدرسيّة» .

وارتعدت وانا اقف امامه وهو يقرأ النتيجة . . . . ولما رفع رأسه من الورقة وجدته يبتسم في حنوّ بالغ ومودّة ، ففركت عينيّ غير مصدّقة . . . لا . . بل انّه ربّت على خدّي ايضا قائلا : هذه المرة نتيجتك مرضية ومريحة جدّا . . . . ولست ضعيفة إلّا في

مادة الرّياضيات وأنا لا احبّ ان تتفوّق ابنتي في مادة الرّياضة فالقفز والنّط للعيال لا للبنات . . . . بارك الله فيك يا ابنتي، بارك الله .

عندما انفردت بنفسي كنت اقهقه فرحة . . لقد حسب ابي انّ الرياضيات هي الرّياضة ولم يكن يعرف انها: الحساب والجبر والهندسه . .

الفهرس